platinumbook

المحامي محمد الباذر

الوارث

قصة جريمة
حدثت بيننا

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

قصة جريمةٍ لايمكنُ إنكارها

تقديم

بعذر إنها جريمةٌ عائلية، وبسبب الخصوصيات الحساسة التي لا تصلح لعرضها على الرأي العام، حدثت الكثير من الجرائم التي هزَّت المجتمع الخليجي، وفتَّت أواصر المحبة والثقة والفطرة السليمة، أعدمت النقاء القديم المشاع بين الناس،بعد كل ماعملته من هدمٍ لم يسعَ أحدٌ للبنيان، وخفتت دون بيان ما يفيد المجتمع من أسباب الجريمة وأبعادها، وبسبب تداخل الأسماء وحفظًا لسمعة العوائل الراقية والبيوت المحافظة التي ادَّعت أنَّ الجرائم لاتحدث في بيوتها سُكت عن كل شيء؛ مما زاد من انتشار العنف في البيوت، ولم تستطع الحكومات أمام هذا السيل الدموي الذي يموج بأبناء المجتمع دون التمييز بين غنيهم أو فقيرهم، عالمِهم أو المتدني في مستواه الدراسي، إلا أن تسنَّ المزيد من القوانين دون توعيةٍ حقيقية ومعالجةٍ لمرض العنف الذي ضرب في الشوارع والمؤسسات والمدارس وصولًا إلى البيوت، وليس بيت (عبدالرحمن) زوج (غموس)- أو طليقها فيما بعد- إلا مثالًا نطرحه للعبرة؛ كي لا يتكرر، درسنا أبعاد الجريمة من كل جانب لكي يراجع المرء نفسه لعله في يومٍ يشعل خيطًا يودي به إلى مالاتحمد عقباه من جريمةٍ يرتكبها أخرق أو قاسي القلب، لابشري يعيش بين البشر، فكل الأبرياء مروا بجانب المجرمين، تزوجوا منهم أو عملوا معهم،أو زاملوهم أيام الدراسة أو جاوروهم في البيوت، أو أكلوا إلى جانبهم في طاولةٍ جميلة في مطعمٍ ما، أو مرُّوا بجانبهم في إحدى الطرقات، كل مجرم هو عود متدلٍ سريع الاشتعال يؤدي لتفجر قنبلةٍ تدمر ماحولها، فلا تكن أنت هذه الشرارة التي تشعله فيضرك ويجعلك تخسر؛ فإن خسارته ليست كخسارتك.

إهداء

الى الحرائر الُمخْدرات في البيوت، الحسناوات اللائي سعين ألا يطمثهنَّ أحد، و لم يسعين ليطَّلع على حسنهنَّ أحد؛ لكن تعاسة حظهنَّ ألقت بهنَّ على وحشٍ ضارٍ، اتهمهنَّ بالعفة، وتغذي على لحومهنَّ الطرية كما تتغذى الوحوش الجائعة،

إلى كل بريئةٍ اشتُهر عنها غير ذلك زورًا، وإلى كل شهيدة لم يحضر جثمانها أحد، ولم يصلَّ عليها، لا لشيء سوى أن جسدها ضاع في البراري، أو تعفن في الجحور أو تقطع بين الوديان، صلَّت عليكن الأرواح والأشباح وسكان الألواح، ولا صلى عليكنّ مجرمٌ جسور، أو منافق عفور، لازال على كرسيه يتحكم ويدور، وتلك الكلمات القليلة هدية معذَّب غيور، تعذب لسماع مآسيكُنَّ ولم يسكن، وكلي إيمانٌ بأن هناك من هو أعظم مني وتعذب عذابًا أشد لما لقيتنَّه، وإلى كل قارئٍ يحب أسرته وعياله وبناته، ضع يدك بيد كل فكرة وكلمة وورقة من شأنها أن تحارب الظلم والعنف والإجرام.

وكيف أهربُ منه ؟ إنه قدري

هل يملكُ النهرُ تغييرًا لمجراهُ ؟!

نزار قباني

علاقةٌ تافهة..

اللبؤة والذئبة وأشرس أمهات الحيوانات عُرفن بحنانهن الفطري على صغارهن، ورعايتهن حتى تستقلَّ وتنطلق إلى الحياة، من قال أنها تقتلها أو تأكلها إذا جاعت فهو مخطئ، وقد تسابق العلماء إلى عقد دراسةٍ لمعرفة حالةٍ نادرة أكلت اللبؤة وليدها، وقد جاءت نتيجة الدراسة أن تناوله كان حماية له كي لا يتعذب لأن المولود كان مريضًا، وقيل في سببٍ آخر حمايةً له من السجن الذي كانت به في حديقة الحيوانات.

ثنيًا على ذلك لم يبادر عالم أو جهة مختصة بدراسة أسباب العنف الذي قد يصدر من حميمٍ على حميم، بلغ الإجرام إلى حد إزهاق النفس وهي غاية الحدود التي أوجدت لأجلها الشرائع والقوانين لحمايتها، ولا أنفس ولا أقدس من حماية النفس من الضرر والموت العنيف، تصاريح بالاستنكار وضجيج لايتعدى الأسبوع الواحد فيما بين الناس في تغريداتهم وتناقلات أخبارهم وحديث دواوينهم؛ ثم تعود الحياة إلى طبيعتها سريعًا، كمن ينفض العثَّة عن أطراف ثيابه، ويقول بأنَّ تلك حادثة لاتمسني، بعيدة عني، لاتعدو أن تكون حالةً شاذة، غموس هي واحدةٌ من تلك الحالات الغريبة التي لاتستحق الدراسة والتأمل برأي الكثيرين.

غموس شابةٌ في مقتبل العمر تسعى لأن تكون محبوبةً ومحطَّ اهتمام، وأن ترتبط بحبيبٍ تحقق معه أحلامها كحال بقية الفتيات، بدأت قصتها في مطلع عام ١٩٩٥ م في إحدى ضواحي الكويت الراقية، عندما خرجت مع صديقاتها لتناول العشاء في مطعم (هنجري بني)، وقد طلبت أربع وجبات سوبر بني، فأوصل العامل الطلب إلى الطاولة الخطأ، التي كان يجلس فيها عبدالرحمن ورفاقه، التهموا الساندوتشات فور وصولها، فإذا بصراخٍ من بعيد لشابةٍ جريئة تتذمَّر بصوتٍ عالٍ:

- مجاعة، حمدًا لله والشكر ، أكلوا طعامنا ولم يتأكدوا حتى من طلبهم، افتح فمك وألقِ فيه ماهو أمامك!! ..

سمعها الشباب فتجاهلوها، فأنبهم عبدالرحمن وتساءل:

- كأنها تعنينا؟ نحن لم نطلب هذه الوجبات!..

هو الوحيد الذي قام إليها معتذرًا، وأصرَّ على دفع حسابها هي وصديقاتها، هذا الموقف أطفأ غضبها وحوَّل مشاعرها للإعجاب بهذا الرجل، واعتبرت ما قام به شهامةً، علقت على وجهها ابتسامة خجل، فلاحظ أصدقاء عبدالرحمن تلك النظرات المتبادلة بينهما:

- يا ماكر ، خطَّطت بدهاءٍ لتوقع تلك الفتاة، أنظر ماذا فعلت بها!!.

استمرَّ رفاقه يوسوسون فوق رأسه، ولم يرحل من المطعم حتى كتب رقم (البيجر) على ذات المنديل للمطعم بجانب شعار الأرنب الأصفر البارزة أسنانه، بدأ التواصل بينهما، ولم ينتهِ إلا بتعلق غموس بعبدالرحمن وإصرارها على أن يتقدم للزواج منها، ظنَّ أنها حبيبة لن يجد مثلها، لم يختبرها في شيءٍ؛ بل هو أيضًا وقع في حبها، وسرعان ما ارتبطا بزواجٍ ليس تقليديًا، ولا علاقة حقيقية، مجرد نظرة إعجاب لايعلم ماتخبئ وراءها، وبعذر أنه تزوَّج منها سارع في اتخاذ كل شيءٍ ليستقرا معًا، وكان أحد قراراته السريعة هو توقعه لمولودٍ جديد يملأ حياتهما حبًّا ورغدًا وأملاً بالمزيد من الحب.

طفولة غموس

لم تَعِش غموس طفولةً، فقد نشأت يتيمة الأب، وسافرت بعمر الخمسة سنوات إلى الكويت، حيث تزوجت أمها من رجلٍ يكبرها بعشرين عامًا، يعمل في السجن، وقد كانت مهمته تنفيذ الإعدامات في المجرمين المدانين، والذين يمرُّ على حكمهم عامٌ كامل، ثم يوقِّع عليها سمو الأمير، ولم يعدم طوال تلك السنين إلا المتوحشين الذين اتفق الجميع على عدم استحقاقهم للحياة، رافقت غموس زوج أمها حين مرضت أمها مرض الموت، وصاحبَته في مكان عمله، تعرَّفت على السجناء، وكبرت بينهم، استمعت إلى قصص المجرمين منذ طفولتها، وشاهدت زوج أمها ينفذ الإعدامات.

كانت تعود إلى البيت فرحةً كمن شهدت مسرحيةً مشوِّقة، تنتظر متى يأتي اليوم التالي لتحضر وتراقب مجرمًا آخر، كبرت في ذلك المكان وكبر شغفها بتفاصيل حياة المجرمين الخطرين، وأصبحت تراقب تفاصيل انفعالاتهم وتأثُّرهم وكيف يعيشون، ونظرت إلى جانبٍ كبير من السجناء الذين ينصلح أمرهم ويتوبون ويُفرج عنهم بعد قضاء ثلثي المدة، بما يسمى العفو الأميري.

مات زوج أمها، وفقدت علاقتها بالسجن؛ ولم تفقد ولعها بعالم الإجرام، وزادها ولعًا مامرت به الكويت من أحداث إجرامية مدمرة مطلع التسعينيات، وبعد التحرير التحقت في أول دفعة لدراسة القانون في كلية الحقوق؛ ولكنها لم تمارس المحاماة يومًا، واكتفت بعملٍ إداري في وزارةٍ بداية حياتها الوظيفية، واستمرت بملاحقة أخبار المجرمين وجمع قصاصات أخبار السجون، حتى تزوجت من عبدالرحمن وهو لايعرف عن شغفها الإجرامي شيئًا.

هروب متأخر

لم يتصور حمد أن يوم هروبه بملابسه الممزقة و وجهه البائس الباكي سيصادف اليوم الذي سيبدو للجميع أنه جنياً خرج من كهف مغلق منذ آلاف السنين ، لأن الناس فقيرهم وغنيهم ارتدوا اليوم أجمل ثيابهم وخرجوا بأجمل حلة لصلاة العيد فكان يمر أمامهم والكل يندهش لحاله ومظهره المزري ، لم يسأله أحد إن كان محتاجاً لشيء بل اكتفوا بالتفرج فشعر بنفسه كالحيوان الأجرب الذي يمر بين الناس فيتأففوا منه ويطردونه من أمامهم .

هرول ولم يعر نظرة المزدري منهم أو ينتظر المتعاطف أي اهتمام ، لم يمسح دموعه أو ينفض تراب تعثره أكثر من مرة على الشارع في طريقه إلى مخفر الشرطة ، لم ينظر خلفه ، لم يلتفت لمخاوفه التي أسرته عن مقاومة سجانته والافلات من يدها، اكتشف أنها كانت أضعف من السيطرة عليه لو لم يكن يحبها ويحترمها ويخاف منها ويخاف عليها من العقاب ، مزيج من المشاعر المتناقضة هي التي جعلته ضعيفاً أمامها .

ربما سني عمره التي جاوزت الستة عشرعاماً بطبيعة حب المراهق للخروج والاحتفال مع الناس هي التي

جرأته على كسر تلك الحواجز التي تحملها السنوات الخمسة الماضية ، فهو لم يعد طفلاً يتقبل الإهانة وكسر النفس أو التعدي البدني الذي لازال يترك في وجهه ورقبته وبقية جسمه آثار التعذيب الذي كان أهونه إطفاء أعقاب سجائرها في أصابعه .

سمع صوت صراخها خلفه وهي تهدده بصوتها المليء بالكهرباء ذي الصدى الذكوري ، فتجمد مكانه وكأنها صعقته أو ألقت عليه بحبل شله عن الحركة :

- حمدووووو ارجع احسن لك لا اذبحك.

لو لم يكن قد استشعر بأن هذا هو يوم خلاصه وأخته التي تنتظره منذ سنوات ليقوم بأي حركة تنقذهم:

- أنت شجاع يا حمد لا تخف منها ..

ضغط على أذنيه وهو يرتجف ، صرخ ليطغى صوته على صوتها ، استجمع قواه فانطلق بأسرع ما يمكنه بقدميه الحافيتين ولم يتوقف إلا وهو أمام رجل الشرطة بل الأخير هو من أوقفه وهز جسده :

- هل أنت مجنون ؟

- لا لست مجنوناً ، أريدك أن تنقذني منها ، انها ورائي ربما ستدخل في أي لحظة وتجرني من بين

يديك ، آرجوك لا تسمح لها بأن تأخذني معها .

قام الشرطي بالاستعانة بزملائه ليعاينوا معه هذا الموقف الذي لم يفهم منه شيئاً ، فتدخل ضابط آخر وأخذ الصبي برفق وسأله :

- ممن تهرب ومن تقصد بالمرأة التي تريد تأخذك ؟

شرق بريقه وهو يحاول أن يخبرهم عن صلته بها لمت عيناه وهو يقول :

- انها آآ.. أ ..أ.. آم .. انها أمي أمي

أخذ يجهش بالبكاء وهو يردد ذات الكلمة هستيرياً .

في الوقت الذي كان يجتمع من في المخفر ليطلعوا على هذا الصبي محاولين الابتعاد عنه بقدر المستطاع للفرار من بشاعة منظره لكنهم أصروا على أن يلتقطوا صوته وهو يبكي شاكياً من أمه، تدخل رئيس المخفر حين رأى جدية ما يريد أن يشكوه حمد ، أدخله معه إلى المكتب مغلقاً الباب ، فاتحاً ذراعيه لهذا الصبي الذي لم يتقدم خطوة :

- لاتخف مني ، أنت بعمر ابني وقد انفطر قلبي على حالك ..

أخذ يلاطفه شيئاً فشيئاً ويسأله عن مكان مدرسته ،

والنادي الذي يشجعه ، عن هواياته، ومكان سكنه ، سأله عن والده فارتمى في أحضانه باكياً وهو يخبره أن أمه وأباه منفصلين ، أراد الضابط أن يهدئ من روعه :

- لاتقلق فالكثير من الأزواج ينفصلون ويكملون حياتهم .

- هنا المشكلة أيها الضابط أننا لم نكمل حياتنا أبداً بعد انفصالهما ، بل و إنني أخشى على حياة أختي

- وأين أختك ؟

- أختي محبوسة في شقة أمي ولم أرها منذ سنوات ..

تم التحفظ على الصبي للتأكد من صحة أقواله وطلبت له إسعاف لفحصه وعلى الفور تم الاستعانة بالمحقق الذي تلمس هو الآخر خطورة القضية فاتصل بوكيل النيابة طالباً الاذن بدخول منزل الأم وتفتيشه ، وقد طلب حمد أثناء ذلك طلباً واحداً :

- اتصلوا بوالدي . ولا ترجعوني إلى أمي ، لا أريد أن أراها ، حتى لو تم تبرئتها من ايذائنا .

لاتردوني إلى أمي

أرجوكم إذا استدعيتم أمي للتحقيق ، اعرضوها أولاً للفحص ، ذلك الحليب الأسود الذي أرضعتني منه أريد أن أتقيأه ، تلك الأكف التي لا أتذكر يوماً أنها حملتني أو سرحت شعري أو مسحت على كتفي أتمنى أن أقطعها بقدر ما عذبتني وحسبتني ، بقدر ما صرخت علي وشتمتني لا لذنب اقترفته بل لأني أشبه ملامح والدي الذي تكرهه فبدورها كرهتني ، أمي ليست أبداً كبقية الأمهات إنها وحش لا أعرف جنسه ، حتى الوحوش ترفق وترق بعيالها ، لاتعيدوني إلى أمي فإنها لن تقر عيناً برؤيتي ولن تحزن لفراقي ، لقد أصرت على التمسك بحضانتها لي كي تقهر أبي وتمنعه من رؤيتنا ولتؤذيه بقبض نفقاتنا منه التي لم تكن تنفقها علينا في شيء ..

أرجوكم أخبروني أنها كذبت بنسبي إليها، بشروني أنها ليست أمي ، اسحبوا دمي ، فإذا اكتشفتم تطابق جيناتنا ، لا تتوقفوا عن سحب دمي ، خذوه حتى آخر قطرة ، دعوني أموت دون الانتساب إليها .

أخذ حمد يهذي كثيراً لشدة خوفه من الحدث الذي سينتظره بعد أن اشتكى على أمه، تم الاستعانة بفريق من الطب النفسي الذين أكدوا أنه بكامل صحته

العقلية ولكنه يعاني من اضطرابات نفسية وعاطفية شديدة قد تجعله يؤذي نفسه .

القبض على غموس

وصلت دورية الشرطة أمام العمارة التي تقطن فيها الأم مع أولادها ، كانت العمارة قديمة مكسوة بدخان أشبه بالضباب الرصاصي المتجمع ناحية الشقة المعنية ، صعدوا وقد غطوا أنوفهم من شدة الروائح القذرة التي تنبعث من كل مكان التي توحي بطبيعة الساكنين في هذا المكان، كلما صعدوا دوراً ازدادت روائح النتن والعفن ، طرقوا الباب فلم يجب أحد رغم سماعهم لحركة داخل المنزل ، سمعو صوت امرأة تتساءل :

- أهذا أنت ياعبدالفتاح ؟ لقد أخبرتك مراراً بأن لا تقرب من باب شقتي ، أنا من يسلمك الأجرة الشهرية انتظر حتى يوم غد .

تجدد طرق الباب

- افتحي الباب يا (غموس)

- ألا تفهم و تناديني باسمي ، لقد تماديت كثيراً ..

فتحت الباب لتفاجأ برجال الأمن أمامها محاولين الدخول رافعين أمامهم ورقة :

- هذا اذن النيابة بتفتيش المنزل

حاولت إغلاق الباب في وجههم لكن أحدهم وضع قدمه ليمنعها من اغلاق الباب ، فأخذت تدفعهم وتصرخ عليهم :

- احذركم لدي كاميرات، كل شيء مسجل ، سأدعي عليكم بالاعتداء علي..

بصقت عليهم وشتمتهم عندما أمسكوا بيديها بقوة وأبعدوها عن الباب ، خرج ابناً وبنتاً آخرين، شاهدا أمهما فلم يتدخلا لحمايتها وهي تصرخ عليهم:

- ساعدوني يا حمقى ، تتفرجون علي ولا تفعلوا شيئاً ، ليتني ربيت كلاباً تنهش أجسادكم بدلاً منكم يا أوغاد ..اتركوني لاتدخلوا بيتي .

لما رأى رجال الشرطة شراسة مقاومتها لهم وسلاطة لسانها قيدوا يديها بالأصفاد وأجلسوها قسراً محذرين

- إياك والحركة أو التكلم و إلا سنستخدم معك القوة اللازمة التي لا تتمنيها .

دلفوا في غرفة النوم ليشاهدوا مالا يصدقه عقل ، أنواع من العصي المختلفة في الصلابة أو الطراوة وبعضها يتدلى منها سلك معدني وأخرى بأطراف مدببة وواحدة معدنية وعصا تنتهي بمسامير ، الأفظع

أنها كانت متلوثة بدم وشعر وقطع جلد ، إنها لم تكلف على نفسها تنظيف تلك الأدوات أو إخفائها ، بل علقتها أمامها كما تعلق التحف الثمينة ، التفتوا للأبناء فشاهدوها يجهشون بالبكاء ، والأم تضرب بقدميها على الأرض وتصرخ عاينوا أمراً مريباً آخر ، فتحات التكييف كلها محكمة الإغلاق واستبدل عنها بمكائن تبريد متنقلة ، رائحة غريبة تملأ المكان لايمكن الجزم بشيء ،قبل أن ينتهوا من تفتيش كافة أرجاء الشقة .

وصلوا إلى مكان مسور بالخشب من كل ناحية ومقفل بابه بقفل حديدي ، أشارا لها بفتحه فرفضت ، تدخلت البنت الصغيرة لتخبرهم أن أمها تخبئ كل مفاتيحها داخل الخزانة الحديدية، الخزانة مقفلة برمز سري لايعرفه أحد سواها .

- ما الذي تخبئينه داخل المكان ؟

- لاشيء يستحق مجرد مخزن للملابس الشتوية التي لا نستخدمها وبعض الأثاث القديم .

- افتحيه أمامنا .

- لقد أضعت المفتاح منذ زمن و لا أدري أين أجده .

تدخل الابن الأكبر ليخبرهم الحقيقة التي أفزعتهم :

- أختي ..

- هذه أختك بخير .

- لا أختي الكبيرة تدعى شمس وهي محبوسة داخل هذا المكان .

- لاتصدقوه هذا ابن أبيه ، حاقد علي لا أكثر لأني كسبت أحكاماً قضائية ضد والدهم .

طرقوا على الباب وصرخوا باسم الفتاة لعلها تسمعهم فتجيب :

- شمس ، شمس هل أنت بخير ؟

صرخ أخوها وصرخت أخته لأول مرة متمنين منها حركة أو جواباً

- شمس .. شمس .. أجيبي ولاتخافي هؤلاء الشرطة أتوا لتحريرك ، لقد نجحنا بإحضارهم أخيراً ، شمس .. شمس .. شمس ..

إنقاذ شمس

استعان رجال الأمن برجال المطافئ بمعداتهم الثقيلة ليحطموا القفل ويفتحوا الباب ، فكانت المفاجأة أن خلف هذا الجدار الخشبي الثقيل ، قضباناً أخرى من حديد ، لقد كانوا أمام سجن ليس إلا ، لم تكن هذه المفاجأة الأولى ولا الأخيرة ، تمنوا لو أن الوقت لم يتأخر على إنقاذ روح بريئة قاست وعانت من أقرب الناس لديها، تمنوا أن يشاهدو ابتسامة فرحتها بمشاهدتهم ينقذونها ، كان المسعفون حاضرين لربما تكون فاقدة للوعي ، جهزت أختها كأساً من الماء لعلها تنعش روحها وتروي ظمأها بشربة من يد حانية.

وجدوا شمس ولكنها أفلت منذ زمن بعيد، أبعدوا الجميع , إلا المدعوة أماً فقد قربوها وجعلوها تنظر إلى ابنتها وقد تحولت إلى رفات نخرة ، لم تبق فيها ذرة حياة ، ولا عضو باق، أشاحت غموس بوجهها في اللحظة التي حضر فيها رجال التحقيق و الطب الجنائي فأصر وكيل النائب العام على أن تواجه بهذا الجسد الرث ، أشار إلى ضباط المباحث فأداروا وجهها قسراً لتواجه العظام المتناثرة ، فأغمضت عينيها رفضاً منها لمشاهدة المنظر البشع ، فبادرها النائب :

- افتحي عينيك وإلا اقتلعت أجفانك كما فعلت بها .

- لا والله يا سيادة النائب أنا لم أؤذي ابنتي بشيء ..

- إذاً أنت تقرين بأن هذه العظام تعود لابنتك .. ما اسمها ؟

- شمس .. اسمها شمس ، ولكني أم، كيف تصدق أن أماً تفعل هذا بابنتها ؟

- فما الذي أدخلها إلى هذا المكان ؟

- هي دخلت من تلقاء نفسها .. لأغفر لها مافعلته في حقي ..

- لا غفر الله لك دنيا ولا آخرة .

- أرجوك لا تدع علي ، فإني مبتلاة ولم أقصد قتلها أبداً ..

- ومن الذي بنى هذا السجن ؟

- لا سيدي أي سجن تعني هذا مجرد مخزن بنوه العمال

- أعني من أدخلهم وأعطاهم الأمر ببنائه ؟

أخذت غموس تصرخ وتبكي وتضرب على رأسها

وتمثل دور البريئة وعندما لم يتأثر أحد بأدائها المتأخر لهذا الدور التمثيلي حتى أبناءها لم يصدقوها فكفوا هم عن البكاء وأخذوا يرمقوها بنظرات حانقة ، بل وتهجم الابن الأكبر حامد عليها وهو يصرخ :

- تبكين عليها وأنت من قتلها .. لماذا ؟ لماذا قتلت أختنا ؟ هل ارتحت الآن منعت والدنا منا ومنعتينا من الحياة .

رفعت الجثة أو ماتبقى منها ، أعتبرت الشقة مسرح جريمة يمنع الدخول إليه حتى انتهاء التحقيق ، خضع الأبناء لفحص الحمض النووي لمطابقته مع أختهم وكذلك أمهم التي تم حبسها على ذمة التحقيق ، وتم الاتصال بوالدهم الذي لم يبق لأبنائه مكاناً سوى بيته لينامو فيه بعد عشر سنوات حرم منهم وحرموا منه بسبب شرور غموس التي لم تكف عن رفع القضايا والشكاوى وايكال الاتهامات إليه حتى ابتعد عنها وترك لها حضانة الأبناء لكنه لم يكن يعلم أنها أفعى بجسد امرأة .

ولادة شمس

شمس هي البنت الكبرى التي كان يفترض بها أن تكون الفرحة الأولى لوالديها عبدالرحمن وغموس ، ولكنها جاءت إلى قدرها المرسوم لها على هيئة أول شقاق حصل بين الحبيبين اللذان لم يمض على زوجهما سوى عام واحد ، تعسرت الولادة حتى كادت تودي بحياة غموس، أدخلت إلى قسم العناية الفائقة ولدت ابنتها الأولى ولم تكن في وعيها لتلتقطها في أحضانها وتشعر بدفئها الذي ينسيها آلام الولادة ، ولم تطبع على وجنته الناعمة كغيم السماء قبلة أولى ، بل امتد غيابها عن الوعي حتى اليوم الخامس ، فلما استفاقت رفضت أن تحمل ابنتها ، تشاءمت لقدومها ، دخلت في دوامة الغيرة من ابنتها التي لم تفعل شيئاً بعد عندما رأتها في أحضان والدها طوال الوقت ، استشاطت غضباً وطلبت من الممرضات أخذ المولودة بحجة أنها متعبة .

أراد عبدالرحمن أن يطلق عليها اسم شمس وراح يقنع غموس بهذا الاسم وهو يشرح لها عن إشراقة وجهها وجماله فرفضت ، أرادت هي بدورها أن تطلق الاسم عليها :

- أليست هي ابنتي وأنا من تحمل كل هذه المشقة

لحضورها ، أنا الأولى باختيار اسمها ، سمها مورا !

- حبيبتي غموس ماهذا الاسم الغريب ومن أين أتيت به ؟

- انه اسم معلمتي التي درستني اللغة العبرية ..

- وماذا يعني ؟

- يعني الفتاة المظلمة هاهاهاها ..

- أمتازحيني ؟

- لا طبعاً مورا وبس لا يليق بها سوى هذا الاسم الجمييييل هههههه

- لا أرجوك لاتجعليني أضحوكة بألسن أصحابي ، لاتنسي أن اسمها سيكون مرتبطاً بي سينادوني أبو مورا ، لا لا

تقمصت دور الغاضبة فغاصت بغضبها وفاق انفعالها وخرج عن السيطرة ، أخذت ترمي كل شيء أمامها على عبدالرحمن ، دخلت الممرضة لتهدئتها ، أخرجت الزوج المنحرج من تصرفات زوجته ،ولم يعد إليها إلا بعد أن أطلق في السجلات الرسمية اسم شمس على ابنته ، ولم يدرك أنه بهذا التصرف غرس المسمار في نعش الصغيرة .

كانت شمس تبلغ الحادية والعشرين حين وصلت الخلافات بين أمها وأبيها إلى المحكمة ، البنت الكبرى مدللة أبيها التي كلما كبرت ازداد حنق أمها عليها ، وازداد تعلق والدها بها ، شاء الله أن يجعل شمس هي الأم الحقيقية لأخوتها الصغار رغم أن الفارق العمري بينهم لم يكن كبيراً ، لم يعلمها أحداً أو يزرع فيها الصلابة بل ولدت بطباع قيادية وشخصية قوية دون تدخل من أحد ، و رغم أنها لم تعق بوالدتها يوماً لكنها مارست الدور الذي تراجعت عنه أم الأبناء الأربعة .

أشغلت غموس نفسها مبكراً خارج المنزل ، أكملت دراساتها العليا حتى نالت شهادة الدكتوراه في تخصص التحقيق الإداري ولكنها واجهت مشاكل متتالية في مكان عملها بدءاً بعدم معادلة شهادتها التي لم تستفد من ورائها شيئاً ، وانتهت إلى إحالتها للتحقيق بسبب إثارتها للمشاكل بين الموظفين ، وعدم احترام بيئة العمل ، زحفت إلى خطة لعلها تنقذها فتقربت من مديرها في العمل (طارق) ولاطفته ، تزينت ، تعطرت، ضيقت ملابسها ، صبغت شعرها ، أصبحت تذهب إلى مكان عملها كمن يذهب إلى موعد غرامي ، اهتمت بأعمال مديرها حتى لفتت نظره، حين استلطفها ، اهتمت به شخصياً حتى جعلته

يبوح لها بكل أسرار بيته وهمومه ، ألقت شباكها عليه ووقع في فخها ، وصل إلى مرحلة لايستغني عنها في شيء، وصارت تتحدث معه طوال اليوم عبر الرسائل ،طلب منها أن لا تحضر إلى الإدارة ، وأن يكون مكان عملها البديل في شقته الخاصة ، أقنعت غموس نفسها بأنها تملك من المواهب التي لا يمكن تقديها في مكان عمل عادي ، وشفعت لنفسها بأن زوجها من عبدالرحمن خطيئة ، والخطيئة الأعظم هي إسراعها بإنجاب أربعة أبناء منه .

لم يساور الشك عبدالرحمن في أي من تصرفاتها الغريبة ، وغيابها المستمر عن رعاية أبنائها ، أو عن الاهتمام بشؤون المنزل علاوة على انعدام اهتمامها بزوجها ، كل ما كان يدور في خلده أنها حادة الطباع ، يجب أن تشغل نفسها في أمر ما و إلا سيكون هو وأبناءه ضحاياها .

صدق حدس عبدالرحمن في جانب وكذب في جانب آخر ، انبنت شخصية غموس الاجرامية في ذلك الجانب المظلم ، على حين غرة حين استسلمت لنزواتها وغيبت عقلها ودينها ، عاشت لارضاء نفسها الأمارة بالسوء ، ولم تصل إلى دجة الرضا يوماً عن حياتها ولم يشبعها كل ما فعلته ، كانت تقضي لياليها بالنحيب العالي ، يتسلل عيالها لكي يواسوها ، فإذا شعرت

بصوت واحد منهم قامت إليه لتضربه وتحرقه بالمكواة على ظهره ، ولا تتوقف عند استغاثته ولا عند تشبث بقية إخوته بها ليشفع له ، بل كان يضاف إلى المعاقب الأول شريك حاول إنقاذه ووقف في وجه أمه ، فلا ينقذهم سوى وصول الأب الذي يهب بالصراخ عليها وينتشلهم منها ، فلم تكن ترتدع حتى عن مهاجمة زوجها ووالد عيالها، كسور ، خدوش ، جروح ، لم يكتب فيها تقريراً واحداً ليدينه بها ، وإنما هي من كانت تهدده بتقديم شكوى ضده إن فكر مجرد التفكير في أن يقدم شكوى في حقها .

جلس الأبناء تحت قدمي والدهم حمد وحامد يواسونه ، وشمس وقمر يلحن عليه بتقديم شكوى ، خرجت إليهم وهم على هذه الحالة لترمي بملابسه عليه وكل ما كان يخصه أخرجته من الغرفة وقذفته عليه ،حاولت شمس منع أمها :

- يكفي يا أمي أرجوك لا تفعلي هذا بأبي .

دفعتها عنها بقوة :

- لا تناديني أمي .. ، وأنت يا عبدالرحمن جد لنفسك مكاناً تنام فيه خارج غرفتي واحمل قذراتك خارجها .. وإياك أن تدخلها .

حمل الأبناء حاجيات أبيهم ، وأوسع له الصبيان لينام

معهم في الغرفة ، وتساءلت شمس قبل أن تطبع على رأسه قبلة ماقبل النوم :

- إلى متى يا أبي ؟

التحقيق مع الأب

لم يكن جرح عبدالرحمن قد التأم بعد في فقده لابنته، موتٌ بلا عزاء ولا مراسم دفن عادية، رحيل ابنته (شمس) المحببة دون أن يطبع على وجنتها قبلة وداع ، هي التي كانت تغمره بالقبلات والأحضان كلما أرادت الخروج من البيت ، تلك التي كانت تخصص له قبلة خاصة قبل أن تخلد إلى النوم ، التحقيق لا ينتظر يجب أن يجيب على كل الأسئلة بالتفصيل الممل ، راعى وكيل النائب العام تشنج الأب واختناقه بالدموع التي كان يبتلعها دون أن يخرجها ، أصبحت الدموع تنخر فؤاده من الداخل ، طأطأ برأسه وضم كفيه ، انه لن يتحدث لأحد إن لم يتحدث اليوم ولن يتكرر منه هذا الحديث أبداً ، راعت جهة التحقيق هذا الألم بطلب كأس ماء وحبوب مهدئة ولكن تأجيل التحقيق ليوم آخر فإنه خطر على الأب وعلى أبنائه وعلى سلامة التحقيق :

- استعن بالله ياعبدالرحمن ، أنت تعلم أننا نعمل لمصلحتكم ولكي لا يضيع حف ابنتك ، فأطلب منك أن تكون قوياً فقط لأجلها .

- قبل أن تسألني وأجيبك على أي سؤال فإن لدي طلب

- تفضل ..

- أريد أن أرى ابنتي شمس ..

احتار وكيل النيابة في هذا الطلب ، فهو يحمل في طيات ملف هذه القضية مأساة حقيقية، والجثة ليست دافئة ولاباردة لكي يسمح له برؤيتها ويعجل في دفنها ، طمأنه بأنه كلما أنجز معه اكمال عناصر التحقيق سيمكنه من رؤيتها :

- ماهي صلتك بالمدعوة غموس خالد ؟

- هي طليقتي ..

- هل ثمة خلافات بينكما ؟

- الكثير من الخلافات وعشرات القضايا ، يكفي أن أقول لك بأن سجلي الجنائي كان ناصع البياض ، حتى دبت بيننا المشاكل الأسرية ، لم يمض أسبوع إلا ووجهت لي تهمة جديدة ، لقد مرت على كل الجرائم واشتكتني بها بدءاً بالسب والقذف ، والتهديد، واتلاف الممتلكات ، والشروع بالقتل والضرب وهتك العرض والسرقة ، ودخول مسكن بقصد ارتكاب جريمة وخطف الأبناء و التحريض على الفسق والفجور و ...، هل أكمل ؟

- يكفي كل شيء واضح أمامي بالأوراق ..

- لماذا توقفت عن تنفيذ حكم الرؤية ؟

- لقد سجنتني وصرت أطلب السلامة

- ماهي القضايا المرفوعة بينكما ؟

- كل القضايا التي كتبت في قانون الأحوال الشخصية وكل القضايا التي يمكن لشخص أن يرفعها زوراً في حق أحد في قانون الجزاء .

- متى كانت آخر مرة رأيت فيها شمس ؟

كان في يوم ميلادها .

هل من صلح ؟

قضى عبدالرحمن لياله في التردد على رجال الدين ، والاختصاصين النفسيين محاولاً إيجاد حل لزوجته الناشز ، وكلما تدخل أحد خرج خالي الوفاض لايملك إلا الدعاء له بالصبر والفرج ولها بالهداية ، بعضهم لم يتحمل سلاطة لسانها ، والبعض الآخر نالهم منها شرر التهجم اللفظي ، ولما رأت أن زوجها المحتار بأمره لن يتوقف عن إدخال كل الناس في قضيتهما ، اتجهت للشكوى على أي شخص يتدخل بينهما ، وإن انتهت تلك القضية للحفظ ، لكن لم يرغب أحد من المحترمين باتصال من مخفر الشرطة بسبب محاولته للإصلاح بين اثنين لا ناقة له ولا جمل في قضيتهما ، فلما بقي وحيداً حائراً لجأ في النهاية إلى المحامية آلاء .

كانت الأستاذة آلاء من المحاميات الفاضلات اللاتي يخشين الله في عملهن ، وجمعت بذلك التقوى شغفها وحبها في عملها فاتجهت لتوعية الناس ووقفت في موقف منصف للكثير من النزاعات ، اشتهر صيتها بأنها مصلحة ومرممة للبيوت التي هدمتها الخلافات ، اتجه لها عبدالرحمن من غير تردد ، فكانت له المحامية الأمينة والأخت الحريصة ، استدعت أبناءه وقابلتهم استمعت إليهم، ثم قررت أن تتواصل

مع غموس التي رفضت أي تواصل مباشر معها واستدعت محاميتها مرام .

على العكس من آلاء كانت مرام عدوة الرجال ، تطلقت من ثلاثة أزواج من قبل ، معروفة بين المطلقات بأنها المنتقمة من الأزواج الذين يفكرون باللعب بأذيالهم ، فلما تواصلت معها آلاء رفضت كل حلولها واقتراحاتها وقالت لها :

- نتقابل بالمحكمة ، وهذا هو الميدان

- صحيح يازميلتي العزيزة أنا لست متوانية عن الاتجاه للمحاكم هذا هو عملنا ، لكني ارتأيت أن هذا البيت من الممكن أن نحد شيئاً من مشاكله حرصاً على مستقبل الأبناء .

- لاتخافي لن يظلم الأبناء ، لا أتوقعك تقصدين قضاءنا ظالم؟ ها؟ ما أسمع ؟

- العفو أنا لم أقصد شيئاً من هذا القبيل ، عموماً لو غيرتم رأيكم في أي مرحلة حتى قبل صدور الأحكام أو بعد صدورها فبابي مفتوح لأي نوع من التصالح ، والتصالح ليس بالضرورة عودة الزوجين لحياتهما السابقة ، بل يكون حلاً ودياً ونوثقه في المحكمة بحيث يأخذ كل طرف حقه .

على العكس من ذلك فرخت القضية الواحدة عشر قضايا ، حتى رفع عبدالرحمن راية الاستسلام وطلق غموس ، التي أعلنت احتفالها بهذا الانتصار المحقق كما كتبت في صورة نشرتها في حسابها لكعكة مليئة بالشموع يعلوها تمثال صغير لعروس تركل زوجها ، أحدثت تلك الصورة ردوداً واسعة بين مؤيد ومعارض ، ولكنها شعرت بنشوة النصر فامتنعت عن تنفيذ أي حكم صدر لعبدالرحمن ضدها ، تنازل عن كل شيء وطلب منها أن تمكنه من رؤية الأبناء .

أخبرته بأن حضانة الأبناء ستبقى عندها، وسيلتزم طوال حياته بدفع نفقاتهم ، بل وكل مايحتاجوه مما يزيد على تلك النفقات وإلا ستواجهه مجدداً في المحكمة ، التزم طوعياً بمصاريف سفرهم ، ومصاريف دراستهم ، واشترى لكل واحد منهم سيارة ولكنها لم تمكنه في أي يوم من تنفيذ حكم الرؤية ، وكلما ذهب إليها قامت بطرده ، أمام الناس ، لجأ بعد ذلك إلى مركز الرؤية ، واستدعاها المستشار وأقنعها بتنفيذ الحكم وأن الأب من حقه شرعاً وقانوناً من رؤية عياله ، لكنها قالت بأن العيال لا يريدون رؤيته ولا يوجد شيء ينفذ بالقوة خاصة وأنهم كبار ، استدعت غموس أبناءها وأجبرتهم للاقرار زوراً أمام المستشار بأنهم لايريدون رؤية أبيهم ولما سألهم عن السبب

أجابوه بأنه يجبرنا على أشياء لا نحبها ونحن كبار ومشغولين بالدراسة وهذا اليوم في نهاية الأسبوع هو الوحيد لاجازتنا بعد أسبوع حافل بالعمل والدراسة ، قالوا ذلك من وراء ظهورهم المشتعلة على أبيهم حرقة وشوقاً، لكنهم لم يجدوا مهرباً من عقاب غموس التي قالت لهم :

- سأؤذيه وأؤذي زوجته إن لم تقولوا بأنكم الرافضين لرؤيته .

صديقة مشتركة !

من يصدق أن أحد دوافع الجريمة البعيدة هي لمياء التي صادف أن تكون صديقة لحنين العروس الجديدة ، و هي ذاتها زميلة قديمة أيضاً لغموس ؟ من يصدق أنها بسبب إخفائها لهاتفها المحمول وإدخاله إلى قاعة الزفاف تسببت في مقتل شمس فأصبح لدى الأم قائمة كافية بالممنوعات التي ارتكبتها ابنتها ، لايمكن السكوت معها دون توجيهها للعقاب الأخير الذي سيعيد تربيتها من جديد .

قامت الأم بتنفيذ خطتها بنفس طويل ، وأعدت كل العدة للانتقام من صغيرتها التي كبرت لتصبح عدوتها التي لا تحتمل أن يمر يوماً دون أن تتشاجر معها على أتفه الأمور وأصغرها، زهدت شمس في كل شيء، وتفارقت مع صديقاتها بسبب تدخلات أمها الشرسة، وإن أصرت أحد الصديقات على البقاء فإن اتصالاً من وابل الشتائم والاتهامات أو الطرد والتهديد سيطالها حتى تبتعد رغماً عنها ، فضلت شمس البقاء وحيدة دون رفيقات كي لا تحرج نفسها معهم وتخسرهم بالطريقة الفاضحة ، منزوية على نفسها ، تذهب إلى الجامعة لحضور دروسها ، تجلس في آخر مقعد ممكن ، بعد أن كانت تحتل المقاعد الأولى ، وتدحل في نقاشات مع أساتذتها، كانت خلاقة للأجواء

الإيجابية ثم فجأة تغيرت فطالتها الشائعات أنها مريضة نفسياً .

استعانت غموس بنجار ليضع لها الجدار الخشبي واختارت أصلب الأنواع وضاعفت المتانة ، ومن ثم وضع لها الحداد أنابيب معدنية طويلة تنتهي بباب صغير ، تساءل قبل أن يستلم أجرته :

- لأي شيء ستستخدمين هذا المكان؟

- للحيوانات الأليفة ..

- لكن هذا المكان قد يجعلها تمرض وتموت فلا تهوية ولا مكان يسمح بدخول الشمس .

- أعلم، ولذلك سأستعين بعامل يفتح لي نافذة من هذا الجدار .

- جيد ، هل تفضلين أن أرشح لك عاملاً ممن أثق بعملهم ؟

- لا شكراً فلدي عاملاً أثق به منذ سنين .

لقدأعدت هذا الجحر المظلم وأغلقته بثلاثة مفاتيح ، وكلما سألها أحداً عنه قالت أنه مخزن .

انتظر سجن غموس خمس سنوات مثلما انتظرت الصورة الملتقطة خلسة في زفاف عبدالرحمن نفس

المدة ، صورة بواسطة جهاز لمياء المحمول، أخرجته من حقيبتها الكبيرة وغطته بوشاحها المزركش الذي كانت تغطي أكتافها حال دخول الرجال إلى القاعة نسيت نفسها وسحبته للأمام كي يغطي الحقيبة بما تخفيه بداخلها وكشفت عن قبح ظهرها ، ركعت لتنجح بالتقاط الصورة وهي التي طالما ادعت أنها لا تتمكن من الركوع في صلاتها بسبب آلام ظهرها وساقيها ، دفعها لذلك الحسد من جمال قوام شمس ومرونتها وجرأتها على الرقص في حفل أبيها المتزوج بعد طلاق أمها ، حدثت نفسها :

- كيف تجرؤ هذه الشقية أن تقف أمام الجميع لتريهم أنها تقف في صف أبيها بعد الذي فعله في أمها ؟ بنات آخر زمن.

ضغطت على الكامرا بشكل متتالي ولم تتركها لتتأكد من وضوح اللقطة ، لاحظتها احدى المدعوات أنها لم تكن بحالتها الطبيعية :

- مالذي تفعلينه ؟

صعقت لمياء وتركت الهاتف يسقط من يديها فاستقر تحت الكرسي ، فأسقطت نفسها فوقه ، تصنعت ابتسامة الخجل :

- لاشيء ملابسي ضيقة بعض الشيء هه..

- أقول لك قومي بسرعة ، الرجال سيدخلون ، اتشحي بما لديك أو اخرجي للقاعة الثانية لوتسمحين ..

سحبت هاتفها بسرعة وأخفته مجدداً في حقيبتها، سحبت ثيابها وانسلت إلى دورة المياه غير مصدقة أنها لم تقبض عليها بالجرم المشهود ، تأكدت أنها نجحت بالتقاط الصورة .

كان قرار لمياء أن تخرج من العرس فوراً إلى لقاء غموس فتكون صاحبة السبق الصحفي بالدليل المشهود، لكن القدر سبقها وأخرجها من هذه الليلة بحادث تعرضت له ابنتها ، ومن مستشفى في الكويت إلى علاج في الخارج ، ومرت الأحداث الثقيلة حتى أنستها أمر شمس ، وفي السنة الرابعة سلمت ابنة لمياء روحها إلى بارئها ، احتجزت لمياء نفسها عاماً كاملاً ، وما لبث أن نسيت حزنها و عادت إلى حياتها السابقة.

في أحد الأيام كانت قررت لمياء التخلص من كل ملابس ابنتها بل وأثاثها بل وكل شيء في البيت حتى الأثاث والحقائب الصغيرة والكتب والقصاصات ، أحست بثقل يخنقها كلما تذكرت ابنتها ، تخلصت من صورها ، رمت شيئاً في القمامة ، وشيئاً وزعته على

اللجان الخيرية التي توصله للمحتاجين ، وتوقفت عند جهازها القديم فقامت بقذفه مع الأشياء الصغيرة ثم توقف كأنها تريد أن تستذكر أمراً منسياً :

- لا هذا الهاتف القديم سأعطيه لعاملة المنزل ، دعيني أمسح كل مايحتويه أولاً .

وهنا توقفت عند الصورة ذاتها ، انها صورة شمس التي مضى عليها خمس سنوات ، وأبوها لازال مستمتعاً بحياته مع ضرة صديقتها القديمة ، لم تنتظر حتى اتصلت بغموس :

- أريد أن أراك لدي صورة تقدر بالذهب الخالص .. هل أنت مستعدة ؟

كتمت غموس في نفسها طوال اللقاء البركان الذي يتصاعد في داخلها ، صعقت ثم خذلت ثم ابتسمت ، شهقت زفيراً طويلاً :

- لم تعد تهمني ، لا شمس ولا أبوها..

لكنها قررت في قرارة نفسها أنها ستتخلص من شر شمس إلى الأبد ، وستمنعها من أبيها إلى الأبد ، لم تصدق أنها تكذب عليها وتدعي أنها في صف أمها ..

قالت في نفسها :

- الويل لك ولأبيك ياشمس .. لن أغفر لك هذه المرة ستدفعين ثمن هذا النكران والجحد ، والخيانة العظمى تعيشين في بيتي وأنت عدوتي والله لم تعود ابنتي .

عيد ميلاد أخير

قبل وقوع المأساة بيوم وهي آخر مرة نظرت شمس إلى نفسها في المرآة ، وآخر مرة تفتح خزانة ملابسها لتنتقي فستاناً ، أطالت النظر إلى كل ملابسها ، تقلب الفساتين وتطيل النظر إلى أشيائها الصغيرة وكأنها تودع كل شيء من الجمادات التي عاشت معها ، حتى وقع اختيارها على فستان ابنة خالتها ذي اللون البنفسجي ، الذي استعارته منها وتأخرت عليها في ارجاعه وقد أكدت عليها بأن تعيده لها لأنها سترتديه في حفل تخرج صديقتها الأسبوع المقبل فحدثت نفسها :

- دعيني ألبسه للمرة الأخيرة مادام موجوداً عندي .

كان يفترض بها أن تخرج بهدوء وفور خروجها من الباب نسيت خوفها من أمها ، انطلقت وهي تقفز كالطفلة التي تسابق خطواتها لتلحق على الموعد دون تأخر كما اشتهر عنها الشهرة السلبية بين صديقاتها وأفراد العائلة، اتفقت مع اخوتها أن يخرج كل واحد منهم على حدة، وبعد دقائق يخرج الآخر دون أن تشعر بهم أمهم فتفسد عليهم الاحتفال الصغير بعيد ميلادها الذي اختارت أن يكون في أحد الفنادق الفخمة المطلة على شاطئ البحر ، بدعوة من

والدها وزوجته وحضور اخوتها ، لقد كانت الدعوة سرية ، وصدر القرار بالاتفاق بينهم بأن تكون كل الصور التي التقطت محظورة التداول فلا يتم إرسالها إلى أحد غير مدعو خوفاً من أن تصل إلى يد والدتهم ، فتعرف أنهم يلتقون بوالدهم من دون علمها .

تلقت الهدايا ، وأصرت على فتحها في ذات اللحظة، لم تنتظر كالطفلة التي تمزق الأغلفة وتصرخ فرحة بما وجدته من مفاجآت أمنياتها الصغيرة ، ساعة ، وسوار، وعقد ذهبي ، وعطور فاخرة ، لم تكتف بمشاهدتها بل أخرجتها من صناديقها الورقية ، وقامت بتجربة كل شيء، فقالت لها أختها قمر :

- لم يسعك الانتظار ، وكأن لا وقت عندك لاحقاً .. هههه

- من يدري ربما .. لاتؤجل عمل اليوم حبيبتي هههه

نزلت أطباق الطعام على الطاولة ، تذوقت من كل طبق ، وعادت وشاركت الجميع بكل شيء، تتلذذ بكل لقمة تستمتع بكل لحظة ، لم تمتلك هذه الشراهة من قبل ، ولكنها شعرت أن هذه المتع الصغيرة عزت عليها وأصبح لكل شيء ثمن غال لايقدر بثمن يجب أن تتمتع حتى آخر لحظة، شاركت الجميع أحاديثهم الجانبية وحرصت على أن تلاطف كل واحد على حدة

وثم تعود للآخر، أطالت الحديث ، تأخر الوقت ، بدأت تنهال الاتصالات من غموس عليهم ، انسحبوا واحداً واحداً ولم تبق سوى شمس ، سألهم المضيفون عما إذا كانوا يحتاجون طلباً أخيراً لأن المطعم سيقفل أبوابه ، طلبت قهوة أخيرة وطبقاً أخيراً من الحلوى تناولتها كلها، ودعت أباها عانقته طويلاً ، لوحت له من بعيد، ثم سارت ببطئ ولم تسرع كأن الأمور لم تعد تهمها .

عادت إلى شقة أمها في وقت متأخر ولو تعلم ما ينتظرها ماعادت أبداً ، لم تغير فستانها من شدة إرهاقها، بل ألقت بجسدها على السرير لتستريح قليلاً قبل أن تعيد فستان ابنة خالتها إلى خزانة الملابس .

سمعت صراخ أمها على اخوتها فعلمت أن أحدهم خضع وفلت لسانه بما لم يجب أن يتكلم به ، يبدو أن الكارثة حلت عليها ، فهي الأخت الكبرى و صاحبة الخطط والمحرضة دائماً على كسر القواعد ، تلك القواعد التي منتعتهم عن الحياة ، وجعلتهم يلتقون أباهم سراً في مواقف المدرسة ، أو بين أرفف الجمعية ، سريعاً ، بعيداً، حتى لا تغضب منهم الوالدة ، ولكنها عادت إلى مقولتها مستهزئة بكل مخاوفها :

- إلى متى ؟

هجمت غموس على غرفة شمس كمن قلعت الباب ولم تفتحه ، دخلت بهبوب الشر ، بصقت ولم تتوقف عن الشتم واللعن ، كانت شمس لاتزال سارحة في عالمها مستلقية ولم تلتفت بوجهها فزاد ذلك من غضب غموس، فجذبتها إليها بكلتا يديها، صفعتها انزلقت من يديها وجاذبتها هي الأخرى، تغيرت نظرات شمس ناحية أمها ، فدفعتها عنها لتبتعد ، أحست غموس بضعفها أمام شمس وعدم تمكنها من شفي غليلها فراحت تبحث عن احدى عصيها المناسبة لمثل هذا الموقف ، انهالت بضربة على رأس شمس فشجته ، سال الدم ، صرخت الابنة المكلومة ،هي تسحب العصا من ضاربتها :

- يكفي .. ألا تظنين بأني كبرت كفاية على هذا الأسلوب ؟

- كبرت أجل لقد كبرت في بيتي خائنة تتصنعين محبتي وتتلونين محاباتي وأنت ذات دم نجس كما هو أبوك ، لقد عرفت كل مافعلتيه من وراء ظهري ، تلتقينه، جعلتيني أضحوكة أمامه وأمام المحكمة والمحامين ، أنا من يتكبد الأموال في رفع القضايا وكسبها و أنت تلتفين على كل شيء وتذهبين إليه ..

- هو طليقك وليس عدوك .. ويبقى هو أبي لن يتمكن أحد كائناً من كان بحرماني وابعادي عنه ..

- تحرضينه على الزواج ، وتحضرين زفافه دون علمي وترقصين في عرسه هل تعتبرين نفسك ابنتي بعد كل هذا ؟

- لم يجرم بالزواج ولم ارتكب جرماً بالفرح معه ، ألا يكفي ما تجرعه منك ..

- بلى يكفي .. صدقت ياعزيزتي ..

التفتت غموس إلى الثوب كيف تمزق وتلوث بالدم :

- انتبهي للفستان ، فإنه ملك ابنة أختي يجب أن يعود إليها سليماً كما أعطتك إياه ، كوني أمينة على ما أعارتك !

- هل خشيت على هذا الجماد ؟ هل تطلبين مني أن أكون أمينة أمام هذه العارية ؟ وماذا عني ؟ وعن أخوتي ؟ ألسنا عارية الله لديك ، فلمَ لمْ تكوني أمينة علينا ، لماذا ؟

لم تنتبه شمس لنفسها إلا وهي قابضة على عنق غموس وبيدها الأخرى العصا المدببة ، وقد تحلق حولها الأشقاء يحاولون تهدئتها فينة ويخشوا أن يعبروا عن فوزهم على أمهم فينة أخرى ، لعل هذه

المعركة تنقلب سريعاً وتنتقم الأم من كل من وقف في وجهها كما عودتهم من قبل، فتراجعوا وطلبوا من الشقيقة الكبرى التهدئة :

- يا شمس مهما حصل هذه تبقى أمنا وأمك ..

التفتت لأمها :

- لا تجبريني على عقوقك في آخر حياتي .

لم يخطر ببال أحد الأشقاء لماذا قالت شمس آخر حياتي ، ولم تقل آخر حياتك ، فالأم هي الأكبر سناً وشمس لاتزال في مقتبل العمر ، وكأنها تنبأت بما ينتظرها ، ولم تكن زلة لسان ، ضمدت جرحها بنفسها سريعاً وخشيت الأم أن تذهب ابنتها إلى الطبيب وتسجل تقريراً في حقها فانكسرت أمامها وهدأتها ، أخذت منها الفستان وغسلته ثم سارعت لإصلاحه وخياطته، وتركت جرح ابنتها لايزال غائراً تحت الضماد.

كان أهم من هذا العراك البدني بين الأم وابنتها هو ما تصارحا به لبعضهما ، وقفت شمس على رأس أمها وهي تحدثها بصوت غاب عنه الخوف وامتلأ بالثقة :

- اعلمي أني ذاهبة إلى أبي .

عودة الأم

لم تر شمس أمها واقفة أمامها مغرورقة الدموع من قبل أبداً ، فركت عينيها ثم شاهدت غموس مجدداً وإذا بها منكسرة وجلة ، فاقتربت منها شمس :

- تبكين ؟

- أنا آسفة يا ابنتي .

لم تصدق شمس حقيقة مايجري وقبلت بالحلم إن كانت تحلم ، فهي تتمنى يوماً تشهد فيه حنان الأم وتجلس معها لتفضفض لها بأحاديث البنات لأمهاتهن ، الموقف لم يكن حلماً ، فقامت شمس لمعانقة أمها ، ثم صارحتها بأنها لن تقف في وجهها ولن تعارضها أو توقفها بالمحكمة والقرار لها إن كانت تريد حقاً الانتقال للسكن مع والدها ونقل الحضانة إليه فهي داعمة لها إن كان هذا القرار يسعدها ، ولم يكن لديها طلب سوى ألا تقاطعها وتستمر بزيارتها والاتصال عليها :

- لاتحكمي على قسوتي ، في الحقيقة أنا لا أقوى على العيش يوماً واحداً دون رؤيتك .

لم تستوعب شمس الصدمة والكلام والأسلوب الجديد لكنها رقت وراق لها الحديث ، فسألتها :

- أنت ما الذي يرضيك يا أمي ؟

- أنا لا أريد شيئاً الآن سوى سعادتك ، وما صدر مني من شجار للتو ليس إلا غيرة من زوجة أبيك، كيف تحتفلي معها بعيد ميلادك ، وأنا لا أحتفل بابنتي حبيبتي ..

- حقاً ؟

- بالطبع ولذلك طلبت لنا عشاء وأريد آن تشاركيني تناول الطعام..

- اليوم ؟

- بالطبع ..

- ولكني أشعر بالتخمة ، فقد أكلت كل شيء هناك ...

- مممم أرأيت! وتسأليني لم أحزن، أنا من أريد من يؤاكلني ويشاركني..

- ولم لا فلنأكل ولكن القليل من كل شيء هههههه

- على الأقل اشربي من هذا العصير الذي تفضليه منذ صغرك ، ها هو يا شمس عصير كوكتيل طبقات زيادة مانجا هههههه

جلست بجانب أمها لأول مرة تشعر بدفء حنانها ، وهي تشرب العصير ، وتضحك وتحكي، وتدوخ وتدوخ حتى نامت على حضن أمها .

حملتها الأم ولكن ليس كالطفل إلى سريرها، حملتها إلى سجنها ، الذي دخلته بهدوء وغفلة ومكيدة ، فالحبيب مخدوع إلى حبيبه ، ولكن أي حب وأي حنان وأي خداع هذا ؟

أول حلم

أغمضت شمس عينيها عن الحياة و فتحتهما كأول أمنية في أول يوم من عمرها الجديد ، سنة حلوة ياشموس، سنة حلوة ياشموس ، سنة حلوة، سنة حلوة ، لايزال صدى أصوات عائلتها يرن نغمه في أذنيها ، لابد وأن هذه مزحة ثقيلة، همت بالعودة إلى النوم فأحست بأن الموضوع مختلف عن كل مقلب حصل مع أخوتها من قبل ، فإن الأمر لايصل بهم إلى وضعها على الأرض من غير بطانية :

- لا إن هذا الفعل لايصدر منهم، هل يعقل أن تكون الأم الحانية التي كانت قبل ساعات تعانقني وتقبلني وتعتذر مني، هي من فعلت ذلك بي

همت بالوقوف فإذا برأسها ثقيلاً ، يكاد الصداع أن ينزع رأسها نصفين ، انتظرت طويلاً، ولم يجبها أحد ، إنها محبوسة في الحمام الصغير الذي لم يستخدمه أحد من قبل ، أرادت أن تقضي حاجتها ، فطرقت الباب ونادت الجميع بأسمائهم :

- حامد ، قمر ، حمد ، أين أنتم ، أماه ، أرجوك افتحي الباب أريد الذهاب إلى الحمام .

فتحت نافذة صغيرة من باب كبير ، ألقت غموس

بكيس فيه طعام ، وقالت لشمس :

- أنت في الحمام ..

- لحظة أريد أن أفهم لماذا فعلت هذا بي ؟

- سأخبرك غداً ، نامي اليوم هنا عقاباً لك لتجرؤك على معارضتي ..

- هكذا إذاً تخبريني بالأمس أنك داعمة لأي قرار اتخذه في حياتي، حتى لو كان انتقال حضانتي لأبي، لماذا لا تسمحين لي بذلك

- لست أنا ياحبيبتي القانون والشرع يقول الأم ثم الأم ثم الأم ، وحضانة البنت تبقى لأمها إلى الأبد ، فلا تري نفسك كبيرة علي، أنت لازلت صغيرة في نظري

- أي شرع وأي قانون يبيح للأم أن تسجن ابنتها ؟ وإن كنت صغيرتك فعلاً فارحميني وأخرجيني من هذا المكان فإني بدأت أخاف حقاً .

- نامي الآن وغداً سأخرجك .

- لا لا لا أريد النوم في الحمام ، أخرجيني،

أحكمت إغلاق الباب في مقابل كل توسلاتها، وشمس لم تنم إلا من شدة إرهاقها بعد أن اختفى

صوتها بصراخها المستمر دون مستمع لها أو مجيب ، نامت وتقلصت كل أمنيات سنتها الجديدة في أن تخرج من هذا المكان .

الفستان يحاول انقاذي

لاتدري شمس كيف نامت وفور استيقاظها بكت كبكاء طفلة أضاعت أمها ، بداية الصدمة وبداية استيعاب مايحصل لها ، الصباح لازال باكراً ، زائرة غير متوقعة تطرق باب الشقة ، فتحت لها قمر فإذا بها بنت الخالة غضبى تتذمر

- اين الماكرة شمس

- صباح الخير ..

- أي خير يأتي من وراء أختك ، دعيني أدخل لأخذ فستاني فلقد ضقت ذرعاً من تصرفاتها ، توبة أن أعيرها شيئاً مجدداً

خرجت غموس من غرفتها بشعرها المنكوش وهي تشير لقمر بإشارة مرور السكين على الرقبة لو أدخلت ابنة خالتها فسارعت قمر بوضع قدمها على الباب ودفعها خارجاً :

- هل جننت أنت الأخرى ؟ تدعيني للدخول ثم تدفعيني ؟

- لا ، تذكرت بأن أخوي حمد وحامد نائمان في الصالة ، وقد حذراني من ادخال أحد قبل ايقاظهما أمهليني دقيقة .

- وما شأني بهما ؟ ألشدة جمالهما مثلاً؟

- اششش ، انتظري .

أغلقت الباب ، فهرعت غموس لإخراج الفستان من كيس مغسلة الملابس :

- خذيه .. ألقيه في وجهها بنت الفقر .

فتحت قمر الباب وسلمتها الفستان :

- ماهذا ؟ مغسووووول ؟ أين أنت ياشمس، اخرجي لي أريد أن أكلمها ، لماذا جهازها مغلق ، لن أتحرك من هنا إلا إذا خرجت لي وجهاً لوجه ، لقد حذرتها من غسل الفستان ، لقد أفسدت كل الزخارف واللآلئ هذا يغسل على الجاف ، أين هي آآآآآ وممزق أيضاً هل كانت تظنني غبية ماهذا الخياط البائس والله لن أمشي ..

- شمس نائمة ومريضة لن تستطع النهوض من سريرها .

- أريد أن أراها الآن وإلا سأشتكي عليها في المخفر .

عندما سمعت غموس بالمخفر أسرعت إلى شمس ، فتحت لها الباب :

- اسمعي سأخرجك الآن فقط لتراك ابنة خالك وثم أعيدك هل فهمت، إياك أن تفضحي أسرارنا أمامها ،،

لم تصدق شمس مايجري فهاهي تخرج من الزنزانة، تشدها أمها كما تشد الخروف من القفص، أوقفتها أمام الباب لتراها ابنة خالتها، فإذا بشمس تراها بعينين دامعتين وتحاول الصراخ لكن لسوء حظها أن صوتها كان معدوماً ، حاولت أن تشير إليها بأنها معاقبة في الحمام من قبل أمها وتطلب المساعدة ، لكن الأم تدخلت بضرب شمس أمام ابنة خالتها التي لم تهدأ وهي توبخها وتصرخ عليها فشاركتها الأم في التوبيخ ، وضاعت استغاثات شمس بينهما وبين كذبة أنها مريضة ، رحلت ابنة الخالة بعد أن أعطتها غموس مبلغاً يعد

بخمسين ديناراً لتصلح فستانها وتقفل فمها وترحل، ،عندما أغلقت الباب ، سحبت معها شمس مجدداً لداخل الزنزانة وأقفلت عليها، كانت شمس لازالت تحت تأثير المخدر الذي وضعته لها غموس في عصير الكوكتيل ، وأما قمر فقد حاولت منع أمها من ادخال شقيقتها الكبرى مجدداً للحمام ، لكنها ضربته ووبختها وهددتها بأن تسجن مكانها لو تدخلت .

تسللت قمر إلى أمها وهي تطلب منها أن تسامح أختها فطلبت منها مجدداً عدم التدخل ، فقالت قمر :

- ألم تقولي بأني لو تدخلت تسجنيني مكانها ؟

- عجيب ، والله طلع لك لسان ياقمر ! وماسر هذا الدفاع المستميت عن أختك ؟

- أنا مستعدة للعقاب فأنا لا مدرسة عندي ولاعمل ، وأما هي فإن تغيبت عن ...

- عن ماذا ؟ شمس خريجة ولا كلية تنتظرها ولا عمل . هههههه إنك فاشلة ، وعندما حاولت أن تدافعي عن أختك أصبحت محامية فاشلة .

- لماذا تقولي عني دائما فاشلة ، حرام تحبسين أختي وقبل يوم كانت تحتفل بعيد ميلادها ، سامحيها .

- قلت لك لآخر مرة أن لاتتدخلي وإلا سحبت هاتفك وأغلقت حسابك الذي تصورين فيه الطبخ ومنعتك من دخول المطبخ بل وسأمنعك من زيارة جارتنا أم علي .

علاوة على هذه التهديدات والإغراءات، كذبت غموس بشأن ذنب ارتكبته أختها لا يغتفر فصمتت وابتعدت عن الموضوع بعد اقنعتها الأم بأن ذلك في صالحها وأنها مجرد فترة تتوب وتخرجها .

شمس في السجن

مرت الأيام ثقالاً أحست شمس أن اليوم شهراً، والشهر يمر عليها كأنه سنة ، انعدم عندها القدرة على تمييز الوقت ، تحكم على النهار بإحساسها إذا استيقظت من نوم كله بكاء ، تقيحت الأرض الصلبة بدموعها ،

تشرخت الجدران لصوت صراخها الذي لم يسمعه أحد ، فقدت صوتها في الأيام الأخيرة، فقدت شعورها بالبرد الذي كانت تتحسس منه أول الأيام ، تنام على البلاط بلا غطاء أو فراش ، تعلمت كيف تنام وقوفاً، كانت تحدث ضجيجاً كلما سمعت حركة شخص غريب يدخل عندهم ولكن لم تنجح أياً من محاولاتها سوى في مزيد من الضرب والاهانات ، كانت غموس تعطيها وجبة في النهار عبارة عن علبة زبادي وقطعة رغيف، وفي المساء غرفة من الأرز مصبوب فوقها مرق البطاط أو الفاصوليا ، مرت عليها أيام اشتهت البرجر أو البيتزا، كانت تغمض عينها وتلوك بلسانها متخيلة أنها تتناول لوحا من الكاكاو ، تستذكر دائماً آخر وجبة تناولتها نجحت في استحضار المذاق في مخها ثم تهدأ نشوتها وتقنع نفسها أنها تناولت ما اشتهته ، امتدت بها الأيام حتى عزفت عن التمني ، لم تعد تحلم بشيء، سوى حلم أخير باق ، وهو حلمها في الخلاص .

كانت تردد عبارة واحدة على غموس لعلها ترحم حالها :

- إني مسامحة لك يا أمي وغافرة ، لا أريد منك شيئاً ، ولن أبلغ أحداً بما حصل ، فقط أفرجي عني ، لقد تعبت ..

- لاتناديني أمي ، لم يعد ينفعك هذا الاستجداء .

- أين قلبك ؟

فيأتيها الجواب بصفع الباب في وجهها . تستجمع شمس قواها بضع أسابيع لتطلق صرختها، وصارت تنتظر مرة بعد مرة ، فكلما أطلقت صراخها دخلت في نوبة هستيرية من الضحك أو البكاء أو كلاهما معاً، نجحت في الحديث مع نفسها فلم يجد معها شيئاً ، سوى الحديث مع ربها بانكسار لا تستحضره ، وتقول في دعائها إذ حاولت أن تستذكر الكثير من الأدعية فلم تسعفها ذاكرتها لكنها كانت تردد :

- يارب إن كان في الكون من هو أضعف حالاً مني فأغثه في الحال، وإن كنت أنا أضعف خلقك حيث لا يسمع صوتي سواك فأغثني من هذه الزنزانة التي صنعتها لي من كان يفترض بها أن تكون أحن الناس وأخوفهم علي، فأنت يارب أقرب وأحن وأرحم ..

تقلبت ذات اليمين وذات الشمال ولم تر حالها يتغير أبداً ، لكنها اكتشفت نوراً خفياً ، وأنساً لم تستشعره من ذي قبل كلما صلت وقرأت آيات من القرآن ، طلبت من أمها في أحد المرات أن تحضر لها المصحف الشريف لأنها لاتستذكر الكثير من السور وتشتاق إلى قراءتها ، لكن أمها أجابتها بحزم :

- هل تريديني أن أرتكب حراماً؟ كيف تطلبين مني أن أدخل القرآن إلى الحمام.

ضحكت شمس فاستغربت أمها :

- ما الذي يضحكك ؟

- لاشعورياً ضحكت يا أمي ، المتفقهة في دينها ، أحببت أنك ترعين مسائل الحلال والحرام ..

- وما الذي كنت تظنيه عني ؟ فإني مسلمة أخاف الله ..

- وماذا عن حبسي في هذا المكان المقفر المظلم طوال هذه الفترة ؟ لا أحسبك تعتبريه حراماً

صفق الباب جواباً لها ، بكت من غير صوت ولادموع رجف كل مافيها دون عينيها ، كانتا شاخصتين إلى رب السماء ، الذي لم تعد ترجوه وتدعوه وتصلي له ليخلصها من هذا السجن ، بل دعت أن يخلصها أشقائها من هذه الأم التي تستحق هذا الدور وهذا الاسم ، وأما هي فقد صلت صلاة الوداع بنية الاستشراف بنور الرب الذي لامست محبته فلم تعد ترغب بالعودة إلى محبة سواه .

لن يكون السجن قبري

أضمرت شمس بداخلها أن كل الوسائل السلمية قد فشلت ، والضعف لم يوصلها إلى نتيجة، نازعتها فكرة المقاومة ، يجب أن تفعل شيئاً مادامت لازالت تتنفس فلازال بمقدورها أن تغير المسار الذي رسمته لها سجانتها ، قالت وهي تشجع نفسها :

- هيا ابحثي لك عن سلاح وانتظري ساعة الصفر لتنقضي على ظالمتك ، لقد انتهى عهد السماح وإن مت وأنت تحاولين فهذا المكان الذي كنت تتوحشي منه أصبحت تأنسيه ولم يعد يخيفك بقدر مايخيف غموس .. فليكن ثأراً، أو فليكن قبراً يلم عظامك إن داهمك الموت لا على حسن غرة بل على موعد تتحينيه وتشتاقي إليه .

استجمعت قواها بذلك الخطاب الذي وجهته لنفسها، بحثت وبحثت حتى وجدت آنية من زجاج نسيت الأم أن تسترجعها ، رفعتها عالياً وقذفتها لترتطم بالجدار فإذا بها تتناثر شظاياها الصغيرة والكبيرة ، تناولت أكبر قطعة منها ، واعتبرتها نصلاً ربطت على يدها قماشاً وثبتت بها ذلك السلاح المعد حديثاً ، ثم كنست بقيته كي لا تفسد خطتها ، انتظرت ، انتظرت ، توقفت وجربت كيف ستكون الضربة ، جربت الضربة من علو، وثم من الجنب ، وريثما هي تعد ،تخطط وتفكر، سمعت صوت أمها تفتح الباب ، هي مجرد ثوان تأخذ منها صينية الأواني المستعملة وتعطيها الوجبة الجديدة ، تسارعت دقات قلبها ، الآن ياشمس ، لا لا انتظري، لا تترددي ، هاهي تدخل ، اضربيها .. هل يجب أن أضربها وأنا

أصرخ أم أضربها بصمت .. اضربيها ولاتفكري بشيء الآن .. قبل أن تخرج وتتلاشى فرصتك .

انقضت شمس بكل قوتها على كتف غموس، ورغم أنها أصابتها لكنها انزلقت بيدها حين تحركت الأم بسرعة انشق الجرح طويلاً من أعلى الكتف إلى بداية الذراع ، دفعتها لتسقط من ورائها مضرجة بدمائها، تركتها مسرعة لتخرج من السجن ،وأغلقت عليها الباب ، لقد نجحت الخطة كما يبدو ، لكن المفاتيح ، أين المفاتيح ، إنها لاتزال بيد غموس ، خطأ لم تتوقعه ، يجب تدارك الأمر بسرعة ، هيا افتحي الباب وشدي من يدها المفاتيح ، لا ستكون بانتظاري ، اذهبي بسرعة لتجدي سلاحاً أقوى، توجهت شمس إلى المطبخ، كانت تتلظى عطشاً وتتضور جوعاً، ماذا تفعلين هذا ليس وقت التفكير بالراحة والغنائم، استلت سكيناً وعادت إلى الزنزانة ، فكانت المفاجأة ، لقد قامت غموس ، انها ليست هنا ، ابحثي عنها ، لا لا اختبئي خارج الزنزانة بسرعة ، ارتطام رن في رأس شمس ، قبل أن تفكر في أن تدير رأسها، ما الذي حدث؟

هههههه يا لك من محتالة صغيرة ، كيف تمكنت من الإفلات من يدها ، بهذه السرعة ؟ من أين لك هذه اللياقة البدنية؟

أين المهرب الآن وقد نجحت في الخروج من الشقة المشؤومة ؟ لا أدري إنني خجلى من نفسي، فإني أريد شيئاً أستر فيه بدني ، الجو بارد هنا، هل حل الشتاء بهذه السرعة؟ ما هذه الرطوبة التي صبت على رأسي، لا أتذكر أن أمطارنا

في الكويت بهذه الغزارة، آه لحظة، ماذا تفعلين، أين أنا؟

ما هذه الحرارة التي سرت في بدني ؟ وأي مطر أحمر هذا ، إنني لازلت هنا ، لا لا لاااااااا.

سقطت شمس قتيلة بفعل ضربات غموس المتتالية، لم تكتف بهذا بل قيدتها ووضعت على جسدها شبك الملابس، ثم رمت عليها كل شيء، رأته أمامها، أقفلت الباب، وذهبت لتغتسل وترمي ثيابها ،وتعالج جروحها قبل أن يعود أبناءها فيكتشفوا ما حصل.

- لا تتركيني مرمية في الحمام، ارجعي، ادفنيني تحت التراب، أخرجيني من هذا المكان البائس، لاتتركيني أتعفن هنا ...

محاولات يائسة

هكذا رسمت الخطة نفسها بنفسها ، وبقيت شمس علي تلك الحال ولم تجرؤ غموس على فعل شيء ، لم تفتح الباب ولن تفتحه ، أحست بوجود شمس قريبة منها ، تقترب ، تزحف ، تتنفس أنفاسها ، تخنقها ، تضايقت أنفاسها ، تحسست رقبتها لتتأكد أن لا أصابع تشتبك عليها ، تلتفت في كل ثانية ، قالت في نفسها

- لابد وأنها ستحاول أن تفتضح أمري بطريقة أو بأخرى ، لكني لن أسمح لها بتدمير حياتي كما دمرتها سابقاً ، لقد ولى شرها إلى غير رجعة .

لكن أولى هجمات شمس التي غفلت عنها غموس، هي الرائحة النفاذة جراء تحلل الجثة، هرعت لتغطية فتحات التكييف كلها بالبلاستك بشكل محكم ، منعاً من تسرب الرائحة إلى جار فضولي ، فيفتضح أمرها ، فتحت النوافذ طوال اليوم ولكن الرائحة كانت أقوى من الاحتمال، فاستعانت بمكائن تكييف مستقلة عن الشقة .

ثاني الهجمات من شمس كانت الرسائل والاتصالات التي ترد على هاتفها النقال والذي استمرت ، فهي قبل أن تقضي في السجن كانت غموس تبعث برسالة أسبوعية إلى عبدالرحمن ، لا لتطمئن قلبه خوفاً عليه أو شفقة بل لتضمن أنه لن يشعر بطول غيابها ، وحين كان يطلب مكالمتها أو سماع صوتها تعتذر بوجود من تخشى منه وأنا لاتريد له المزيد من المشاكل والشكاوى الكيدية .

ثالث الهجمات كانت سيارة شمس إذ لاحظ الحارس عدم تحركها منذ زمن ، فكذبت عليه غموس بأنها مسافرة لإكمال دراستها ، فتجرأت بعد ذلك لقيادتها، صادرت جميع أغراضها وحاجياتها ، فاقتنع الجميع بأن لا شيء تغير ، وليس هناك مايدعو للشك والريبة .

يجد البعض الأب مقصراً وملاماً لأنه لم يفعل المستحيل في السعي للاطمئنان على أبنائه ، ربما هذا اللوم يكون مقبولاً لو لم يقض عبدالرحمن وهو والد الأربعة سنوات في المحاكم ، لحقتها سنوات في المخافر ، وإن كان هناك من يلام حقاً فهو القانون بمؤسساته و رجاله ، حين عاد الأب مرات ومرات لتنفيذ حكم الرؤية ، لم يقف معه أحد ، وحين استعان برجال الشرطة رجعوا بخفي حنين ، وحين أراد اسقاط حضانتها في المحكمة خسر الدعوى ، رغم كل الأدلة التي يمتلكها ضدها وقيل له ذات الكلمة التي كره سماعها منهم :

- مهما فعلت فإنها تبقى أمهم !

وحين اتصل بمركز حماية الطفل وأخبرهم بأنها تمنعه من رؤية عياله وهو خائف عليهم منها لأنها تضربهم سألوه سؤالاً محدداً :

- هل توجد بينك وبينها مشاكل أسرية وصلت للمحاكم ؟

- نعم بالتأكيد وإلا من سيتصل عليكم سوى من يعاني المشاكل !

- نحن لا نتدخل في هذه الحالات لأنها تدخل في الانتقامات

الشخصية بين الطليقين ، موضوعك في المحكمة ارفع في حقها دعوى

- وأنتم ماهي سلطتكم ؟

- نحن نحول شكواك إلى التحقيق ، ننصح الطرفين من ناحية تربوية واجتماعية ونفسية ، نحن لا نحقق ولا نفتش ولا نوجه اتهامات لأحد ، أن كان أبناءك عند أمهم فهي الحاضنة ولايتصور أن تؤذيهم ماداموا كباراً ظننا بداية أنهم أطفال ..

حياة الأشقاء

انشغل الأشقاء بأنفسهم ، وحاولوا أن ينفذوا بجلدهم من قساوة الأم وتعنيفها ، اعتقدوا أن أمهم مريضة، وأنهم يجب أن يعيشوا حياتهم مثل بقية الشباب ، حامد الأخ التالي في العمر لشمس حيث يبلغ عشرون عاماً وهو بعيد عن البيت ومشاكله بطبيعته وهوايته ، حيث أنه يدرس في الجامعة الأمريكية تخصص تسويق وفي نفس الوقت هو أحد لاعبي المنتخب الوطني لكرة القدم ، فيومه ينتهي خارج المنزل بين الكلية واستراحة الغداء ثم إلى التمرين وفي الليل يسهر في أحد المقاهي مع أصحابه ، ولا يرجع الى شقة أمه سوى للنوم ، وكان يغيب أسابيعاً إن كان في أحد المعسكرات الرياضية وهو ما أعطى غموس مساحة كبيرة بغيابه رغم أنه الأكبر والأعقل لكنه اختار الابتعاد وعدم المواجهة .

الشقيقة الثانية تدعى قمر وعمرها بلغ الثامنة عشر تعثرت في دراستها ولم تكمل دراستها الثانوية، تأثراً بتلك الخلافات الأسرية التي لم تتحمل الوقوف في طوفانها ، غرقت في السرحان أثناء حضورها في المدرسة ، وكثر التفكير ، كانت مشتتة الانتباه دائماً ، تنتابها حالات من الخوف والبكاء المفاجئ ، فقضت وقتها عند جارتهم الطباخة أم علي وتعلمت منها حب الطبخ وشغف إعداد الطعام وأتقنت صنع الأكلات التراثية ، وهي التي شجعتها لتفتح لها حساباً في الانستغرام والسناب يدعى قمر كوك ، ولما سألتها :

- ماذا يعني يا أم علي قمر كوك ؟ قمر ديك

- هههه لا بل يعني قمر تطبخ

وهكذا قضت قمر وقتها في المطبخ ، حتى ذاع صيتها بين الناس ، وصارت تطبخ للولائم الكبيرة، وأصبحت الحجوزات عندها لاتتوقف ، وأصبح ذلك مصدراً للرزق أشغلها عن التفكير في اكمال دراستها ، علاوة على أنه أشغلها عن مشاكل أمها.

وأما الشقيق الأصغر حمد فقد عالج مشاكله النفسية مما رآه في بيته بكثرة الضحك وكثرة المزاح ، رمى كل شيء وراء ظهره ، ولم يأخذ أي موضوع على محمل الجد، بدأ بعمل المقالب في أصدقائه ، ثم قام بتصويرها للناس في حسابه الذي اشتهر بسرعة ، قام بفتح اللايف بسبب أو بغير بسبب ، وعادة ماكان متابعيه يتضاعفون لمشاهدة يومياته التي كانت بلا هدف سوى لتضيعة الوقت والضحك وايقاع من كان يقابلهم في الإحراج دون علمهم بأنه يصورهم مباشرة للعالم .

في أحد المرات التي كان جالساً فيها داخل الشقة وهو يتفرج على مشاهدة احدى مباريات كرة القدم فتح البث المباشر ليرصد آراء متابعيه وتوقعاتهم ويستعرض أمامهم بردود أفعاله المبالغة والتي كان من المفترض أن تكون مضحكة لهم كلما سجل أحد اللاعبين هدفاً أو ضيعه لاعباً آخر يتكلم أثناء المباراة مع نفسه دون أن تشعر أمه بأنه فاتحاً لهذا البث الذي بلغ مشاهدته مليون متابع ، فمرت غموس بعشاء شمس قألقى عليها حمد تعليقاً ساخراً ليرصد المزيد من المعجبين فلقنته درساً من الصراخ والشتائم وهو يضحك

من ردة فعلها، وأما هي فكانت مندهشة من ضحكاته المتصنعة :

- استمتعنا بسمفونية شتائمك شكراً شكراً هههههه فلاتقفي أمام التلفاز يا حاجة هههههه .

- قليل أدب ماعرفت أربيك ، دعني أنتهي من شمس وأعود إليك ، إن لم أقطع أسلاك التلفزيون ،

- عادي قطعيه مو من فلوسي ، والله يخلي اللايف الايفون نتابع فيه كل شي هههههههه .

كان يمثل هذا المشهد الارتجالي متعمداً مع غموس وهي لم تدرك ما يتفرج عليه الناس وماقصة الشهرة وعدد المتابعين ، والأهم أنها لم تدرك وهي ذاهبة لشمس أن كل شيء يجري مشاهدته سماعه في ذات اللحظة التي تقع عندهم .

فتحت الباب كعادتها ، وكانت شمس قد استجمعت قواها لتصرخ مستغيثة بأحد لعل هناك من يسمعها ، فهي تيأس يوماً ، وتعيد صنع أملها يوماً آخر هكذا كالطفال الذي يبني قصراً من الرمل فيهدمه ثم يعود لبنائه دون جدوى، وحدث مالم يكن في الحسبان ، صرخت صرخاتها المدوية ، فألقت غموس الأواني من يدها وجرت بينهم مشادة ،وصراخاً سمعه كل من كان يتابع حمد في بثه المباشر :

- ساعدوني ، اتصلوا بالشرطة ، أي أحد يسمعني ، سأموت ، سأموت، الغوث يا ناس .

- اصمتي وإلا سأقتلك حقاً ولن تري طعاماً ، ياكافرة بالنعم .

عادت غموس إلى الصالة بعد أن أحمت قفل باب زنزانتها ، فرأت هاتف حمد مفتوحاً على الكامرا :

- انت ما الذي تقوم بتسجيله ، امسح كل شيء بسرعة والا حطمت هاتفك ..

- أي تسجيل أي بطيخ هذا لايف ..

- ماذا تعني باللايف يامجنون ..

- بث مباشر وعندي مليون يتابعوني الآن سلمي عليهم هههههه

انقطع البث المباشر فجأة ، وانهالت غموس بالضرب على ابنها ، وسحبت منه هاتفه ، ثم لم تكتف بذلك بل قامت بحبسه هو الآخر ، فأصبح في سنة حبس شمس الخامسة رفيقاً آخر انضم إليها حديثاً ليجن جنونه بما رآه .

الكارثة أن مليون متابع لم يحرك أحداً منهم ساكناً ، ولم يقم أحد بالاستفسار عما حصل من صراخ واستغاثة و عراك ، ربما حقاً ماتت قلوب الناس وخوفها على بعضها البعض ، أو ربما كان صوت التلفاز عالياً ولم ينتبه أحد ، أو لأن حمد لم يبث ذات يوم موضوعاً جاداً وكل معاركه كانت ملفقة ومقالبه مصطنعة ، فلم ينتبه أحداً لشيء ، ولكن ما آلم حمد أن أحداً لم ينتبه لغيابه الذي استمر إحدى عشر شهراً ، مرافقاً لشقيقته الكبرى شمس ويراها بحال يرثى لها ، كأنها

مدفونة في قبر تتنفس فيه دون أن تموت .

اجتماع الشقيقين

جمعت الزنزانة حمد بشمس بعد فراق دام أربع سنوات ، افترقا طوال هذه المدة رغم أنهما في شقة واحدة لا يفصل بينهما سوى جدار واحد ، ولكن أحدهما كان باكياً معذباً والآخر ضاحكاً منعماً ، جمعهما الليل الذي لايعرفان له وجهاً سوى أصواتهما التي تتغير من شدة الانهاك واحتياجهما للنوم ، تثاءبا معاً ، وبكيا معاً ، وضحكا معاً ، كان حمد يعامل شمس قبل أن تسجن على أنها أمه التي طالما رعته واهتمت به فعاتبته لطول جفائه وعدم محاولته لمد يد المساعدة يوماً ، ولا الاستنجاد بأحد ، إنها لم تصدق أنهم يعيشون حياتهم كأن شيئاً لم يتغير وكأن شخصاً لم يفقدوه، فقال لها الحقيقة التي تمنت أنها لم تسمعها :

- لقد أخبرتنا أمي أنك ارتكبت ذنباً لايغتفر وهي تحبسك لتؤدبك ليس إلا ..

- ماذا أخبرتكم أي ذنب هذا أخبرني؟

- لا أفضل الكلام في هذا الموضوع..

- هل تعتقد أن دخولك معي هنا جاء بالصدفة ، إن الله يريد أن يريك أني بريئة ، ولترى بعينك مايجري بحقي في هذا المكان القذر ، أخبرني ما الذي قالته عني ؟

- لقد أخبرتنا بأنك كنت تخرجين دون اعلامها وأنك كنت مع أحدهم !

- كذب والله انها تكذب ، فماذا قلتم لها..؟

- غضبنا منك وأردنا ضربك ، لكنها أخبرتنا أنها ستعاقبك العقاب الأنسب الذي سيعيدك إلى عقلك.

فتحت غموس الباب لتستمع لكلاميهما فاكتشفت خطأها بإدخال الأخ مع أخته ، فسارعت لإخراجه وحبسه في غرفته بعد أن أحكمت إغلاق النافذة بالحديد وبالتأكيد فإن الجميع أصبح ممنوعاً من استخدام هاتفه، ،نال ذلك العقاب حامد وقمر رغم ابتاعدهما عن مجابهة أمهما ، فاختنق كل من في البيت وضاقوا ذرعاً بتصرفاتها.

لكن ذلك الحبس الذي جمع حمد وشمس جعله يعرف الحقيقة ، حقيقة براءة شمس ، وحقيقة جنون أمه ، وحقيقة ما كانت تتعرض له في السجن الصغير ، فقرر أنه سينقذها قريباً وإلا لن يعود إلى حياته .

جذبت الأم حمد من شمس وهي محتارة هل تتركه للخروج من هذا السجن ، أو تتشبث به كي لايتركها ، فما إن أدركت طمعها الحقير لو منعته من الخروج لكنها قبلته وودعته وهي توصيه بأن لايتركها :

- حمد الله يخليك لا تتركني أكثر سوف أموت ، لم أعد أحتمل ، وداعاً ياأخي الصغير ..

أبناء غرباء

من أصعب المواقف على الأبناء آن يتغربوا بين بيتين لأقرب الناس إليهم ،بين بيت الأم المدعوة غموس ، وبيت الأب المدعو عبدالرحمن، أمنية بعيدة كانت أن يعودوا لأحضان والدهم ولكنهم لم يتمنوا بأن يكون مقابل هذا ثمناً باهظاً عليه أن يدفعه واحداً منهم بحياته لينجي البقية ، بين البرود وعدم التصديق ، الغضب والاشتياق، الحزن الذي لايمكن التعبير عنه ، الفضيحة أمام الغرباء ، ومع كل ذلك بمجرد مشاهدتهم لوالدهم انفجروا ببكاء أبكى كل من كان حاضراً عانقوا عبدالرحمن كما كانوا يفعلون صغاراً ، كبرت آجسادهم ولم يمنعهم من التعلق برقبته ومن وراء ظهره رغم أنهم فعلياً أصبحوا غرباء عنه بعد كل هذه السنوات الطوال لكن عاطفة الأبوة التي نادراً مايحكى عنها هي أشبه بالمعجزة الربانية ، مجرد تبسم الأب في وجه أبنائه توزن بألف كلمة تعزية ومواساة ، هو العمود الحقيقي ، استعادة النفس داخل الصدور الميته ، السند والجمال والبقاء ، ترجم الأبناء كل ذلك بصمت ونحيب وكلمة واحدة ظلوا يرددونها :

- يبا .. بابا .. باباتي ..

كل يناديه بطريقته ويبقى الأب واحد ، عمود من الشمس ممتد من السماء لينير تلك القلوب المظلمة، يدفئ الأحضان الباردة ، ولذلك كان لا يبكي ولا يذرف دمعة واحدة رغم أنه يتفجر حزناً وغيظاً من ألم داخل قلبه لما فعلته المجرمة غموس ، وهو يجد نفسه مجرماً باختيارها أماً لهؤلاء المساكين .

لم يكن يعزيه سوى آنه كفر عن ذلك الذنب بمبادرته لاختيار زوجة أخرى ، كانت هي الأم البديلة لأبنائه لولم تتدخل غموس بنزعهم منها ومنعها من رؤيتهم ومنع عبدالرحمن من أبنائه .

لو لم يكن الأب يعرف وحشية غموس لتوجه باللوم والتقصير لبقية أبنائه كيف لم يبلغوا طوال هذه السنوات عن حبس أختهم شمس ، ولو لم يكن الأبناء يعرفون ماتعرض له الأب في السابق من أمهم لم يغفروا له هجراتهم والاستسلام عن محاولة أخذهم من بين يدي أم آسرة .

- افرحوا لها ..

نظر الجميع إلى حمد باستغراب واستنكار وهو لم يتردد بل زفر مافي صدره بوثوق :

- لقد سبقتنا بالتحرر ، ووضعت حداً لمعاناتها ..

أجابته قمر :

- ارحم حالنا وحالها ولاتردد مثل هذه الكلمات أنت لاتدري ماقاسته وكم تمنت أن تكون بيننا كفتاة عادية بين أسرتها

تدخلت حنين زوجة والدهم وهي تقبل رؤوسهم واحداً تلو الآخر :

- شمس شجاعة دافعت ببسالة عن حياة أسرتها بداية بإصرارها على والدكم

أراد الأب أن يمنعها عن الحديث :

- لا ياحنين لا داع لهذا الكلام الآن .

- بلى يجب أن يعرف الجميع حجم التضحية التي قدمتها شمس .

قبلة وداع

يسامر عظامها ، يمسك بها من كل حانب وهو عاجز عن الوصول إليها ، لم

حمل جمجمتها ، كمن يحمل طفلته المحتار بحملها فور ولادتها خوفاً على ايذائها ،

وجدن نفسه نتفٌ متضائلة أمام أرقام مسجلة لتدل على أي عضو هذا من أعضائها ، على قارعة الجنون يمضغ الصبر الذي لم يتبق منه شيء ، لم يصدق أن هذه هي ابنته ، ندم على اصراره ومطالباته بتوديعها بهذه الهيئة ، ولولا إيمانه لكذب بكل ما آمن به ، طبع على جبينها قبلة وداعب خيشومها بأنفه ، أرجعها برفق ، مسح عليها ، وغطاها كأي أب يغطي ابنته لتكمل نومها، تراجع واستغفر ربه كثيراً ودعاه أن يلطف بعقله وقلبه في هذا المصاب .

خرج عبدالرحمن وقد منع كل أبنائه من الدخول عليها إلا وهي مغطاة كي لايروا ما رآه ، صورة حفرت في عينه ، ولايكاد مشهداً جميلاً بعده إلا وتحسر على شمس ولعن غموس ، أراد لأبنائه أن تكون لهم فرصة جديدة بحياة بلا عقد ولا علل ، أراد لهم فرصة تشافي سريعة من مرض غموس ، رفض أن يتعاطى هو والأبناء أي نوع من العلاجات الموصوفة لهم وقال :

- إن الله هو الذي ابتلانا وهو الذي سنجينا ويشفينا وجودنا معاً أعظم أثراً من أي دواء موصوف ، ولجأنا لكلام الله كفيل بأن يبرئ جروحنا البادية والخافية على الناس ، كفانا بكاءً

وعويلاً يا أحبتي ، فإن شمس لن تعود للحياة ونحن لن نموت معها ، سنتجاوز هذه المحنة معاً .

المحاكمة

كانت الهيئة القضائية تخشى أنها ستواجه متهمة متلاعبة بأقوالها في مقابل الشهود الذين كانوا كلهم من بيت واحد فتطول المحاكمة على غير معنى ، المتهمة غموس لم تبدأ حديثها في أي جملة إلا بحلف اليمين ، لم يطلب منها القسم بل وتم نهيها عن ذلك إلا أنها تقسم كل مرة قسماً كاذباً ، ظناً منها أنها ستنجو بهذه الأقسام، وكأن اسمها مهد لها هذه النهاية (غموس) وكما يقال لكل شخص من اسمه نصيب وهو الاسم الذي يعني اليمين الكاذبة ، هي اليمين التي اتفق فيها جميع فقهاء الأديان بأن مصيرها اللعنة الأبدية ، والخلود في النار .

لم يكن يرعبها إلا أن يحضر محامياً جديداً في القضية بأدلة لم تجهز لها رداً ودفاعاً مقنعاً، فكانت تبكي كلما تورطت ، النيابة العامة بما قدمته من أدلة أغنت عن كل المحامين ، ومع ذلك كانت تمتلئ فزعاً وهي في السجن المصغر المبني في جانب قاعة المحكمة ليقبع فيه المتهمين أثناء محاكمتهم .

كلما أدخلنها الشرطيات في هذا القفص أطالت النظر في جنباته ، تختنق وهي تستذكر ذلك القفص الذي بنته لابنتها ، لم تتحمل ما بنته لغيرها وهي حائرة تخشى أن تلقى ذات المصير الذي لقيته شمس ، كانت كلما همت بعقاب واحد من أبنائها ردت عليه عبارتها المفضلة « الجزاء من جنس العمل » فخذ جزاءك دوون أن تكثر الشكوى ، لم يخطر ببالها أنها ستلقى أثر هذه المقولة بقدر ما آمنت فيها على غيرها دون

نفسها .

على الرغم من إتقانها لدور الأم الثكلى الملطخة وجناتها بدمعٍ كذب ، فقد تقيح كرسي الاتهام شياطيناً وشيطانات التقمهم ابليس وهو يقف على رأسها واحداً واحداً هطلت دماؤهم على منكبها فصارت تغتسل بدم لايطهرها منه ماء الدنيا أبداً .

تململ الجالسون من الاستماع إلى أحاديثها في فيض حنانها وتعلقها بابنتها ، حتى وصل بالقاضي أن يسكتها وطلب منها عدم الكلام أبداً ، إلا حين يطلب منها ذلك جواباً على سؤال محددمكتبة ضاد

لا يسمح القاضي بأن يحول قاعة المحكمة إلى مسرح أكاذيب أحد المتهمين الذي يرى في كلامه أمام الجميع مغامرة أخيرة وربما متعة يتسابق عليها بعض الصحفيين لنشر مانشيت ، أو خبراً تقتات منه وسائل التواصل الاجتماعي والحسابات الإخبارية دون مراعاة لحرمة أو خصوصية أو سلامة إجراءات ، وكم من خبر مغلوط أثير وأشيع معه صورة بريء واسمه واسم عائلته قبل أن يتأكد عنه شيء ، أصبح الناس يصدرون أحكامهم قبل القضاة ، دون إيصال فكرة أو نشر عبرة وبلاوعي أو هم لتغيير الفرد والجماعة ، فكر الغاب يسود ، حتى اضطرت جهات التحقيق بإصدار منع التداول في أخبار بعض القضايا التي مستها لاكتها ألسن الناس من غير أي فائدة تذكر .

منع دخول الصحفيين بل وحتى من ليس ذي صفة في هذه القضية التي لم تمر على المنطقة مثلها بهذه التفاصيل

البشعة ، لكن مع ذلك فقد دخلت فتاة في مقتبل العمر أثناء الجلسات الأخيرة قبيل أن يصدر قراره بحجز القضية للحكم، لم ينتبه لوجودها أحد سوى غموس ، أمعنت فيها النظر فتعرفت عليها فوراً ، انها ليست محامية ولا وكيلة نيابة ولا أحد الشرطيات .. انها هي ومن يكون غيرها ، لكن عقلها طاش وجن جنونها ولم تستطع كتمان الأمر فقد استنجدت بالقاضي:

- كيف حضرت هذه إلى القاعة ؟

- اششش ياغموس نبهت عليك أكثر من مرة يمنع عليك الكلام إلا إذا طلب منك ذلك ، لقد اكتفينا بمسرحياتك ..

- لا لا انظر ياحضرة القاضي انها تهددني ، انظر إلى حركاتها ..

- عيب هذه محامية محترمة ولم تفعل شيء !

- لا أعني التي تجلس في الكرسي الذي بجانب المحامية ..

- لا أحد يجلس عليه ، الكرسي فارغ ..

- أجل فرغ الآن لأنها قامت إلي، آآآآ أنقذوني منها ، لقد معي في القفص ، سوف تقتلني ..أين الشرطيات تعالوا ؟

كانت ترى شيئاً لم يستطع أن يره أحد سواها ولم يعلم أحد من تعني حتى صرحت باسمها :

- شمس.. شمس ابتعدي عني، سوف تقتلني

اقتنعت هيئة المحكمة أنها لاتزال تكمل دوراً تهريجياً

لتضييع وقت المحكمة وإطالة أمد الجلسات بغير طائل ، طلبت محاميتها عرضها على الطب النفسي لربما أصيبت بالجنون ، لكن القاضي رفض هذا الطلب رفضاً قاطعاً، فإن أسهل طريق على القاتل أن يمثل دور الجنون لينال حكم البراءة أو على الأقل حكماً مخففاً ، إنه عقاب السماء في الدنيا قبل أن يقرر القاضي عقابه ، لن تهنأ غموس ولن تنعم براحة البال ساعة واحدة وستظل شمس تلاحقها وتقض مضجعها حتى لا تذق عينها طعم النوم ، ربما في حساباتنا القاصرة نرى أن البريئة التي قتلت من غير ذنب رحلت من غير رجعة ولا يمتلك أحداً دليلاً قاطعاً على أنها لم تعد لتنتقم من قاتلها على الأقل في أحلامه.

حكمت المحكمة على المتهمة غموس بالحبس المؤبد ما يعني أنها ستظل حبيسة السجن طوال أيام حياتها، وليس كما يشاع خطأ أن الحكم ينحصر في عشرين أو خمسة وعشرين عاماً .

قدمت التقارير عن حالة غموس وطلبات الاسترحام للمحكمة عشرات المرات وكلها انتهت بالرفض ، إلى قال القاضي لمحاميتها :

- أنت تبشريني بهذه التقارير ، والله لو جئت لي بتقرير أنها تتقطع داخل السجن لن أخرجها بأي عذر ، لقد حكمنا عليها بالحبس طيلة حياتها لكي تتعذب بداخله .

الختام

لم تُشتهَر مجرمةٌ مدانة في السجن كما حصل مع غموس، عُرفت بلقب (الوائدة)، وهي الأم التي تُقدم على قتل ابنتها الأنثى دفنًا وهي حية لتتخلَّص من عارها، البنت بريئة من ارتكاب المآثم لكن العار ملازمها، فتسمى البنت المدفونة المقتولة (موؤدة).. على الرغم من أنَّ هذه الجريمة انقرضت وانقرض معها هذا الاسم الذي لم يعد يُستعمل لانعدام هذا الشكل الإجرامي؛ إلا أنه يتجدد بين فينةٍ وأخرى، حين تتشابه الجريمة ببشاعتها مع هذه الصورة .

الوائدة عوضًا عن الوالدة، وهو اللقب الذي لا تستحقه لإقدامها على إقحام ابنتها زنزانةً أشبه ماتكون بالقبر، تركتها تعاني وهي حيةٌ تصارع للبقاء، ولم تترك لها بصيص أمل للعودة إلى الحياة، أو الاستغاثة بأحد سوى غياث المستغيثين الذين لايسمع أنينهم سواه.

الوائدة كانت واحدةً لا تشبه قصتها أحدًا في السجن، فلم تكسب تعاطف أعتى المجرمات، لاتزال محبوسةً إلى يومنا هذا، لا يسأل عنها أحد ولا يزورها ثمة زائر، منبوذةٌ مكروهةٌ، تواجه مصيرها الذي رسمته لنفسها بنفسها.

تنتهي هذه القصة على أمل ألا تتشابه معها جريحةٌ أخرى، محبوسةٌ، أو مقطوعةٌ، أو مطرودةٌ، أو مظلومةٌ، بأي شكلٍ من الأشكال، رفقًا بالقوارير، رفقًا .. فإنها وصية السماء..

مَوْلايَ وَسَيِّدِي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أَمْسى وَأَصْبَحَ فِي مَضائِقِ الحُبُوسِ وَالسُّجُونِ وَكُرَبِها وَذُلِّها وَحَدِيدِها يَتَداوَلُهُ أَعْوانُها وَزَبانِيَتُها فَلا يَدْرِي أَيُّ حالٍ يُفْعَلُ بِهِ، وَأَيُّ مُثْلَةٍ يُمَثَّلُ بِهِ، فَهُوَ فِي ضُرٍّ مِنَ العَيْشِ وَضَنْكٍ مِنَ الحَياةِ يَنْظُرُ إِلى نَفْسِهِ حَسْرَةً لايَسْتَطِيعُ لَها ضَرّاً وَلا نَفْعاً، وَأَنا خِلْوٌ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ فَلا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ مِنْ مُقْتَدِرٍ لايُغْلَبُ، وَذِي أَناةٍ لا يَعْجَلُ، صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَاجْعَلْنِي لَكَ مِنَ العابِدِينَ، وَلِنَعْمائِكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَلآلآئِكَ مِنَ الذَّاكِرِينَ، وَارْحَمْنِي بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.